تمّ القبض

صالح محمد الهلابي

دار البسمة
للنشر الإلكتروني

تم القبض

اسم الكتاب: تم القبض

اسم الكاتب: صالح محمد الهلابي

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-418-251224

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2026م / 1447هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

@ bassmabook

bassmabook@gmail.com

المملكة المغربية

كل الحقوق محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. ولا يجوز بأيّ صورة نشرَ أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيٍّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

تمر القبض

رواية

صالح محمد الهلابي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أخي الغالي **عبدالله بن عبد العزيز الرديني**

لقد علمتني أن العطاء لا يُقاس بما نُعطيه، بل بما نغرسه في قلوب الآخرين.

تعلمت منك أن **العطاء نهرٌ لا ينضب**، وأن **المحبة شجرةٌ وارفة الظلال**، كلما مرّت عليها السنوات ازدادت جمالًا وعمقًا وثباتًا.

لقد كنتَ دائمًا سندًا يهب الطمأنينة في أوقات العواصف، وصوتًا يهمس بالأمل حين تصمت الدنيا. يسعدني ويشرّفني أن أهديك هذه الرواية عربون محبة وامتنان، ووفاءً لأخٍ كان وما زال جزءًا من حياتي، ونبعًا صافياً من نُبل المعنى وجمال العِشرة.

1- الرياض-صيف 1983م

اجتمع الأصدقاء في مقهى الجامعة في آخر أيام الدراسة، بعد أن أنهوا آخر اختباراتهم النهائية. كان المكان يعجّ بضحكات الطلاب وعبق القهوة الممزوج برائحة الفرح. على الطاولات، تناثرت الكتب التي فقدت أهميتها فجأة، وارتفعت أصوات الأحاديث عن الإجازة الصيفية القادمة كأنها وعدٌ بالخلاص بعد عامٍ طويل من التعب.

تأخر سعد في الحضور كعادته. دخل المقهى بخطوات هادئة، ونظراته تجول بين الوجوه التي اعتادت سخريته اللطيفة وصمته الغارق في التفكير. لم يلتفت إليه أحد بتحيةٍ خاصة، فقد كانوا منشغلين بالضحك وتبادل الخطط للسفر والاستجمام.

جلس سعد في آخر الطاولة، واضعًا كوب القهوة أمامه دون أن يلمسه، يستمع إليهم بصمتٍ يشبه التقييم. كان يشعر أنه مختلف... مختلف في الطريقة التي يرى بها العالم. بينما هم يتحدثون عن الشواطئ والمهرجانات، كان هو يرى التاريخ كأرضٍ تنتظر من يكتشفها من جديد.

انقطع صمتُه حين التفت إليه أحدهم قائلاً بنبرةٍ مرحة:

-سعد! ما رأيك؟ أين ستقضي الصيف؟

اعتدل في جلسته، رفع رأسه ببطء، ونظر إليهم بعينٍ واثقةٍ هادئة، وقال بعد لحظةٍ من التفكير:
-يا أصدقائي، قضينا أربع سنوات ندرس التاريخ نظريًا بين الكتب والجدران، لكن متى سنلمسه على أرض الواقع؟ متى نرى بعيننا الشواهد التي بقيت من حضاراتٍ مرّت من هنا؟

قاطع حديثه أحد الأصدقاء وهو يضحك:

-يا سعد! دائمًا أنت غريب الأطوار! نحن نبحث عن راحة بعد سنةٍ من العناء، وأنت تبحث عن مشقةٍ جديدة؟!

ابتسم سعد ابتسامة عابرة، ثم آثر الصمت. كان يعلم أن الجدال طريقٌ بلا نهاية، وأنهم لم يبلغوا بعد النضج الذي يجعلهم يدركون لذّة التعب من أجل المعرفة.

حاول صديق آخر تلطيف الأجواء فقال:

-طيب يا سعد، لنفترض أننا وافقناك، إلى أين تريد أن تذهب؟

أجابه سعد بثقة:

-إلى العراق.

ارتفعت الحواجب بدهشة، وانطلقت التعليقات

دفعة واحدة:

-العراق؟! في خضمّ الحرب؟! هل جننت؟

ارتشف سعد ما تبقّى من قهوته التي بردت، ووضع الفنجان بهدوءٍ على الطاولة، ثم قال بنبرةٍ مطمئنة:

_الحرب في الجنوب، حول شط العرب والبصرة، أما أنا فوجهتي شمالًا، حيث بابل وبغداد وسامراء. هناك، بين أنقاض الحضارات وعبق العباسيين، أريد أن أرى التاريخ كما لم نره في الكتب. دعوا عنكم الخوف، فمن أراد أن يفهم الماضي حقًا، فعليه أن يمشي على ترابه.

ساد صمتٌ ثقيل، ثم بدأت الأحاديث تتلاشى شيئًا فشيئًا. انسحب الأصدقاء واحدًا تلو الآخر، متذرّعين بانشغالاتٍ أو ضحكاتٍ باهتة. لم يبقَ معه في النهاية إلا حمد، صديقه الأقرب، الذي مدّ يده يربّت على كتفه وقال بابتسامة صادقة:

-أنا معك يا سعد، لكن دعني أزور أهلي في عرعر أولًا. بعد شهرٍ، ننطلق معًا كما تشاء.

أشرق وجه سعد بابتسامةٍ واسعة، وعانق صديقه بحرارةٍ امتزج فيها الامتنان بالفخر، ثم قال بصوتٍ خافتٍ مفعمٍ بالثقة:

-كنت أعلم أنك الوحيد الذي سيفهمني. دعوتهم جميعًا لأجل المظاهر فقط، أما الرحلة فكنت أراك رفيقها منذ البداية.

رفع رأسه نحو السماء الرمادية خلف زجاج المقهى، شعر كأن المستقبل يناديه من بعيد... لم تكن الرحلة إلى العراق فحسب، بل كانت **رحلة نحو ذاته**، نحو يقينٍ بأن شغف المعرفة لا يعرف الخوف، وأن بعض الطرق لا تمهَّد إلا لمن اختار السير فيها وحده.

2- حفر الباطن

عاد سعد إلى حفر الباطن بعد غيابٍ طويل، فوجدها غير التي غادرها. وجوه جديدة تملأ الشوارع، وأصوات غريبة تتردد في الأزقة التي كانت ذات يوم تعرف صوته. المدينة التي كان يعرف تفاصيلها حجراً حجراً بدت له اليوم كغريبةٍ تتصنّع الودّ ولا تمنحه الألفة. حتى أصدقاء الدراسة والحارة، الذين كانوا يملؤون أيامه صخباً، اختفوا في متاهات الحياة، تفرّقوا كما تتفرق أوراق الخريف في مهبّ الريح.

مرّ بجانب الملعب الترابي الذي شهد أجمل لحظاته، المكان الذي كان فيه يركض حافي القدمين خلف الكرة، يضحك ويغضب ويهتف مع أصدقائه. وقف عند السور النادي، وتسمّر في مكانه. الملعب لم يتغير كثيراً، لكن الوجوه تغيّرت. جيلٌ جديدٌ حلّ محلّهم، ومع ذلك... ظلّ يسمع في ذاكرته ضجيج اللاعبين القدامى وهم يتجادلون على قرارات الحكم.

ضحك بخفوتٍ، ثم مضى بخطواتٍ أثقلتها الذكريات.

في اليوم التالي، قرّر أن يتجوّل في أرجاء المدينة، يزور الأماكن التي ترك فيها جزءًا من قلبه. لكن في طريق

العودة، توقفت قدماه خلف سور المقبرة .هناك ترقد أمّه منذ ست سنوات.

ترحّم عليها بصوتٍ خافت، ثم جلس على الأرض، يطيل النظر إلى الأفق كأنه يبحث عنها في البعيد. غمرته رائحة التراب المبلول بالندى، وداهمه طوفان الحنين. حاول أن يمنع دمعةً غادرة، لكنها كانت أول السيل، فانهمرت دموعه حتى ابتلّ التراب تحت قدميه.

بعد أن أذّن المؤذن للمغرب، نهض بتثاقل، توضأ، وصلّى ركعتين خاشعتين، ثم رفع كفّيه قائلاً:

_اللهم اجمعني بها في الفردوس الأعلى، كما جمعت بيننا في الدنيا بحبٍ لا ينقطع.

عاد إلى المنزل بخطى مثقلة. لم يستطع أن يرفع عينيه حين رأى والده. الأب، الذي لم يتكلم شيئاً، فهم ما يجول في قلب ابنه دون أن يسمع منه كلمة. اقترب منه ووضع يده على يده، ثم ضمّه إلى صدره، فشعر سعد أن هذا الحضن القديم لا يزال مأواه الآمن.

جلسا معاً، وبدأ الأب يسرد عليه أخبار السوق التي فاتته أثناء غيابه؛ تجارٌ غادروا وآخرون وفدوا، بضائع راجت وأخرى كسدت. تغيّرت خارطة السوق القديم، لكن في عيني والده بدت تلك التغيّرات عظيمة، بينما رآها سعد مجرّد تفاصيل عابرة في لوحةٍ من الماضي.

في اليوم التالي، اتفقا على الذهاب معاً إلى السوق. هناك، جلس سعد في المحل بينما ذهب والده لتفقّد المستودع. وبينما كان يتأمل حركة الناس، دخل الحاج حمّادي العراقي، أحد أصدقاء والده القدامى. رحّب به سعد وسأله بشغفٍ عن العراق، عن بغداد وبابل والفرات.

لكن الحاج أجابه بابتسامةٍ حزينة:

-والله يا ولدي، من السبعينات ما زرت العراق... صدرت ضدي أحكام، لأني كنت ضد حزب البعث.

شعر سعد بخيبة أملٍ كبيرة. كان يظن أنه وجد أخيراً من يروي له حكايات العراق كما هي، لكنه أدرك أن الأبواب لا تُفتح بسهولة.

غير أن الحاج حمادي استدرك قائلاً:

-تعرف مبارك ولد الملا؟ خابرني قبل فترة، زار العراق هالسنة، وحكى لي عن رحلته، عنده قصص ما تنتهي.

ودّع الحاج وهو يبتسم، بينما سعد شعر بشعلةٍ من الأمل تتقد في صدره.

في تلك الليلة، توجّه مباشرةً إلى محطة سيارات الأجرة حيث يعمل مبارك، لكنه علم أنه غادر إلى عرعر قبل دقائق مع مجموعة ركاب.

انتظر يومين كاملين، حتى عاد. وما إن علم بعودته حتى أسرع إليه، ولم يمنحه فرصةً لالتقاط أنفاسه. اتفقا على لقائه في المساء في مقهى على طريق الكويت.

حضر سعد باكرًا، جلس في مقعدٍ يطل على الطريق، تحيط به عتمة الصحراء إلا من أضواءٍ خافتة تتدلّى من أعمدةٍ صدئة. لم يكن معتادًا على مثل هذه المقاهي، لكنه قرر أن يخوض التجربة.

وصل مبارك متأخرًا، سيجارته في فمه، يبادل الحاضرين التحايا بصوتٍ مرتفع. جلس، وما هي إلا لحظات حتى وضع العامل أمامه النرجيلة، فبدأ يعدّل مزاجه بأنفاس متتابعة. بعد النفس الثالث التفت إلى سعد وقال وهو يضحك:

-عسى ما شرّ؟ تسأل عني كأنك فاقدني!

ابتسم سعد بترددٍ، ثم بادره قائلاً إنه يريد أن يعرف تفاصيل رحلته إلى العراق.

نظر إليه مبارك بنظرةٍ فيها ازدراء، وقال وهو يحرك شاربه الكثيف:

-العراق ما تنفع لكم يا حقين الجامعات... يبيلها رجال قلوبهم حديد!

تجاهل سعد نبرة السخرية وصمته، فتمادى مبارك في الحديث وهو يضحك بصوتٍ عالٍ:

-أنا أروح عشرة أيام وأصرف أقل من ألف وخمس مية ريال!

-كيف؟ تسكن عند أقارب لك هناك؟

-لا، أسكن أحسن الفنادق... بس تعرف، الموضوع يحتاج قلب قوي!

-وضّح لي أكثر.

-بسيطة. أهرب معي عملة عراقية، أشتريها من هنا بثمن بخس، وأصرفها هناك، أعيش مكرّم مدلل! لكن لو مسكوك؟ الله يعينك... يمكن يرسلونك للجبهة تحارب الإيرانيين!

ضحك ضحكة طويلة حتى تحولت إلى كحةٍ متقطعة.

ورغم مزاحه الثقيل، بدأ أخيرًا يسرد لسعد تفاصيل السفر والإجراءات، ونصحه أن يستخرج تأشيرة من السفارة العراقية في الكويت، مشيرًا إلى أنه لم يزر العراق منذ اشتداد الحرب في الجنوب، لأن رحلاته كانت دائمًا إلى البصرة.

عاد سعد إلى منزله تلك الليلة، رأسه يعجّ بالأفكار. لم يكن يثق كثيرًا بكلام مبارك، لكن شيئًا في حديثه عن تهريب العملة العراقية شدّ انتباهه. فكرة تقليل التكاليف كانت مغرية، وربما... كانت مفتاحًا لتحقيق حلمه بالرحلة التي طال انتظارها.

جلس قرب النافذة ينظر إلى أضواء الطريق البعيدة، وتساءل في نفسه:

-هل تستحق الأحلام المجازفة؟ أم أن بعض الطرق تبدأ بالحلم وتنتهي بالمصيدة؟

3- الكويت

في أقصى شمال المملكة، كانت رياح الباردة منعشة تلامس وجه حمد كل صباح وهو يجلس في محل والده لتبديل العملات في الشارع العام بمدينة عرعر. بين أصوات الزبائن ورنين النقود المعدنية، كانت عيناه تتجهان بين حينٍ وآخر نحو الهاتف الأحمر الموضوع على الطاولة الخشبية القديمة. لم يكن هاتفاً عادياً بالنسبة له، بل نافذةً يترقب منها اتصالاً طال انتظاره... اتصال سعد.

مرّ شهرٌ كامل منذ افترقا في الرياض .شهرٌ من الصمت والانتظار والظنون. في كل يومٍ، كان حمد يردد في داخله:

-متى يتصل سعد؟ هل أتم التجهيزات؟ هل تراجع عن فكرة الرحلة؟

وفي ظهيرةٍ هادئة، انطلقت رنّة الهاتف المنتظرة. ارتجف قلبه قبل أن تمتد يده للرد، ظانًّا في البداية أن المتصل هو والده من مكانٍ آخر. لكنه ما إن رفع السماعة حتى جاءه صوتٌ مألوف، دافئ رغم بُعد المسافة:
-حمد... أنا سعد.

لم يتمالك نفسه من الفرح، فخفض صوته كيلا يسمعه أحد في المحل وقال بشوقٍ مكتوم:

-سعد! حيّاك الله يا رجال، بشّر، وش صار على السفر؟

ضحك سعد ضحكة قصيرة وقال بثقةٍ حازمة:

-الأمور ماشية، أرسل لي جوازك اليوم... لازم أقدّم طلب التأشيرة من السفارة العراقية في الكويت.

لم يتردد حمد لحظة. أرسل الجواز في نفس اليوم عبر محطة نقل الركاب، وهو يشعر أن الحلم بدأ يقترب من التحقق.

تسلم سعد جواز صديقه، لكنه اصطدم بعقبةٍ كبيرة : موافقة والده على السفر إلى الكويت.

كان يعرف أن والده يخاف عليه من الانفتاح هناك، من تجارب الغربة الأولى، من كل ما يجهله. انتظر الفرصة المناسبة حتى سمعه ذات مساءٍ يشتكي تأخر بضاعةٍ له قادمة من الكويت. فابتسم سعد في نفسه وقال بهدوءٍ محسوب:

-يا يبه، خلني أروح بنفسي أتابع الشحنة. يمكن أقدر أخلصها وأرجع بسرعة.

تأمل الأب وجهه طويلاً، متردداً بين خوفه وثقته في نضجه، ثم قال بعد تنهيدةٍ عميقة:

-توكّل على الله... بس دير بالك على نفسك، الكويت غير يا سعد.

في فجر اليوم التالي، حمل سعد حقيبته الصغيرة وغادر الحفر باتجاه منفذ الرقعي الحدودي.

كان الطريق تمتد أمامه كخيطٍ من ضوءٍ باهتٍ في الصحراء الرمادية. لم يكن في المنفذ السعودي ازدحام، تجاوز الإجراءات بسرعة، وعبر إلى الجانب الكويتي من منفذ السالمي.

ومع أول نسمةٍ بحريةٍ استقبلته عند مدخل مدينة الكويت، شعر وكأنه دخل عالماً آخر؛ مدينة تنبض بالحياة، محاطة بالحداثة، تفوح منها رائحة الخليج وأضواء الأبراج.

توجه مباشرة إلى السفارة العراقية في منطقة السفارات القريبة من شارع الخليج العربي.

كانت البوابة محاطة برجال أمنٍ بملامح متوترة، والداخل مزدحمٌ بالمراجعين العراقيين. دخل سعد إلى القسم القنصلي، فناولوه استمارةً لملء بياناته الشخصية. ملأها بعناية، لكنه ارتبك حين طلب الموظف جوازَي السفر وسأله بنبرةٍ جافة:

-من هذا حمد؟

شعر سعد بوخزةٍ في صدره، ثم أجاب بسرعةٍ مرتجلة:
-قريبٌ لي... مريض، ناوي يسافر للعراق للعلاج عند أحد المعالجين الشعبيين.

رفع الموظف حاجبه بترددٍ، ثم أخذ الأوراق دون تعليق. خرج سعد من السفارة وهو يشعر بأن طلبه أقرب إلى الرفض، فالأوضاع في العراق متوترة، والحرب مستعرة، ومن النادر أن يطلب سعوديٌ زيارة بلدٍ تموج بالقتال.

في المساء، توجه إلى سوق المباركية، المكان الذي تتقاطع فيه أصوات الباعة برائحة البهارات الشرقية. قابل التاجر الكويتي الذي يتعامل مع والده، فاعتذر له عن تأخر البضاعة بسبب احتجازها في الميناء، لكنه وعده بأنها ستُشحن خلال ثلاثة أيام.

وبين انتظار الشحنة وانتظار الجواز، كانت الأيام الثلاثة التالية تمرّ ببطءٍ جميل.

كان سعد يقضيها بالتجوال قرب أبراج الكويت، يستمع إلى همس الموج حين يضرب الصخور، ويراقب السفن الصغيرة وهي تعود مع الغروب. شعر وقتها أنه يلتقط أنفاس حلمٍ قديم... حلم السفر إلى أرضٍ غريبة، والبحث عن معنى جديد للتاريخ والحياة.

في صباح اليوم الرابع، حمل وصل استلام الجواز وتوجّه إلى السفارة العراقيةِ من جديد. لكن المفاجأة كانت تنتظره عند البوابة.

الجيش الإيراني شنّ هجومًا جديدًا على مواقع الجيش العراقي في الجنوب، وحقّق تقدماً سريعاً. أجواء التوتر كانت تخيّم على المكان، والوجوه داخل السفارة متجهمة، والجنود عند البوابة أكثر تشدداً.

ورغم ذلك، عندما دخل إلى القنصلية استقبله الموظف نفسه بابتسامةٍ مبالغٍ فيها، وقال وهو يقدّم له الجوازين:

-مبروك... تمت الموافقة. تأشيرتان صالحتان للدخول إلى العراق.

لم يصدق سعد عينيه. قلّب الجوازين بين يديه، يرى ختم التأشيرة العراقية واضحًا أمامه. في تلك اللحظة، شعر أن الطريق إلى حلمه فُتِحَ فعلاً.

عاد إلى حفر الباطن بعدها، والجوازان في جيبه، وقلبه يغلي بالحماس لما هو قادم.

ولمّا وصل، وجد أن بضاعة والده سبقتْه إلى السوق، فاستقبله الأب بفرحٍ كبير، غير مدركٍ أن ابنه لم يعد كما كان...

لقد عاد جسدًا، لكن فكره كان هناك، في بغداد التي تلوّح له من وراء الأفق.

4- حفر الباطن

في مساءٍ هادئ من ليالي الصيف، جلس سعد مع والده في الحديقة الخلفية للمنزل بعد تناول وجبة العشاء. كانت الأجواء تعبق برائحة النعناع المغلي، وصوت الحشرات يهمس في العشب الرطب. تحدّث والده بصوتٍ يغلب عليه الحنان والرجاء عن رغبته القديمة في أن يرى ابنه مستقرًّا، متزوجًا من فتاةٍ تليق به وبمكانة العائلة.

بينما الأب يحلم ببيتٍ جديدٍ يضج بالحياة، كان ذهن سعد يسبح في مكانٍ آخر تمامًا، هناك في حدود العراق، حيث تنتظره مغامرة لا يعلم إن كانت بداية طريق أم نهايته.

ابتسم سعد لوالده ابتسامة باهتة، ثم قال بهدوءٍ متردّد:
-يا يبه، خلّنا نأجل موضوع الزواج شوي، لين أخلّص دراسة الدبلوم بعد الجامعة.

تفاجأ والده من طلبه، فهو كان يظن أن ابنه سيعود من غربته بالرياض ليستقر بجانبه، لا أن يمدّد سنوات البعد. ومع ذلك لم يعلّق كثيرًا، أخفى غصّة في صدره وقال بصوتٍ خافت:

-مثل ما تبي يا ولدي... أهم شي تكون مرتاح.

لكن سعد كان يخفي ما هو أكبر من دراسة الدبلوم. كان يخفي رحلة كاملة من الأكاذيب الصغيرة التي بُنيت على حلمٍ جامح بالسفر إلى العراق .كان يعلم أن والده لو عرف الحقيقة لما سمح له حتى بمغادرة باب المنزل.

في فجر اليوم التالي، غادر سعد البيت بهدوءٍ تام. لم يُرد أن يودّع والده، خشي أن ينهار قلبه أو أن تفضحه عيناه. خرج قبل صلاة الفجر بسيارته الصغيرة، والليل لا يزال يلتحف الطرقات، والريح تهمس في زجاج السيارة البارد.

كانت الأضواء الصفراء المتقطعة على الطريق تراقبه كعيونٍ خفيّة، كأنها تسأله: إلى أين تمضي بكل هذا الإصرار؟

امتزج ظلام الليل بشعورٍ عميقٍ بالذنب، فالحنين لوالده يتصارع داخله مع الرغبة الجامحة في خوض المجهول. الطريق طويل ومزدحم بالشاحنات التي تهدر بجانبه كوحوشٍ من حديد، تهزّ سيارته الصغيرة التي تتمايل كريشةٍ في مهبّ الريح.

ولكي يخفّف توتره، أدار المسجّل فصدح صوت أم كلثوم وهي تشدو:

"رجعوني عنيك لأيامي اللي راحوا"...

لكن الكلمات لم تُشعل الطمأنينة في قلبه، بل زادت غربته، حتى شعر بصداعٍ ثقيلٍ يطرق رأسه كالمطر.

عند الظهيرة توقّف في مدينة رفحاء، وقد أنهكه الحرّ وطول الطريق. دخل مطعمًا عراقياً تفوح منه رائحة الكباب المتبّل، جلس على طاولةٍ صغيرة في الزاوية، تناول وجبته بشهيةٍ عجيبة، وكأن نكهة الكباب العراقي أيقظت فيه الشوق المخبّأ للمكان الذي يسعى إليه.

غرق في تفاصيل المكان: راديو قديم يبث أغنية سعدون جابر، جدارٌ تزينه خريطة العراق، ورجلٌ يضحك بصوتٍ جهوري وهو يحكي عن "بغداد أيام زمان". شعر سعد حينها أنه قطع نصف المسافة إلى حلمه.

بعد ساعةٍ من الراحة، عاد إلى سيارته، والحرارة تلفح وجهه كلسعة النار. مكيف السيارة يضعف شيئًا فشيئًا، لكنه واصل القيادة بحذرٍ وعيناه على عدّاد الحرارة، يخشى أن تتعطّل السيارة في وسط الصحراء.

وقبل مغيب الشمس، بدأت ملامح مدينة عرعر تلوح له من بعيد، مدينة هادئة كأنها تتهيأ لتوديع يومٍ آخر من أيام الصيف.

دخل شوارعها الرئيسية وسأل عن محلات الصرافة، فاتجه نحو الشارع العام، حيث صفّ من الدكاكين

الصغيرة التي يقف خلف مكاتبها رجالٌ كبار في السن، يستعدون لإغلاق محالهم بعد يومٍ خالٍ من الزبائن.

وفي آخر الشارع، لمح وجهًا يعرفه... كان وجه حمد، صديقه ورفيق مغامرته، يحاول إغلاق باب المحل الحديدي، ينحني على القفل الضخم وهو مشغول بالإقفال. وقف سعد أمامه بصمتٍ تام. رفع حمد رأسه ببطء، وما إن التقت نظراتهما حتى تجمّد للحظة، كأن الزمن توقف.

ثم اندفع نحوه يعانقه عناق المشتاق بعد فراقٍ طويل، ضحك الاثنان بصوتٍ خافت، خشية أن يسمعهم أحد.

قال حمد وهو يلهث من الفرح:

-تعال، لا تخليني أطول السالفة هنا... لو شافنا أبوي بتورّط!

ابتعدا عن المحل وتوجها إلى مطعمٍ عراقي شهير في أول الشارع العام. جلسا على طاولةٍ جانبية، طلبا مشويات عراقية تفوح رائحتها اللذيذة، وبينما كان البخار يتصاعد من صحن الكباب، قال حمد وهو يرتشف الشاي العراقي ببطء:

-كل شي جاهز يا سعد، جهزت المبلغ بالدنانير العراقية، رح نعيش هناك مثل الملوك!

ضحك سعد، لكن في داخله مزيج من الخوف والحماسة. سأله بنبرةٍ فيها توتر:

-وكيف بنمرّ بالجمارك العراقية بكل هالمبالغ؟

أجاب حمد بابتسامةٍ فيها دهاء:

-فصلت لنا سراويل خاصة فيها مخابئ سرّية، محد بيشك فينا أبد. المبالغ موزعة، وإن اكتشفونا، نصادر المبلغ ونعيش على الريالات. قوي قلبك يا صديقي!

ضحك ضحكة طويلة، عالية، شدّت أنظار رواد المطعم، كأنه أحد أبطال الأفلام الذين لا يخشون المجهول.
أما سعد فابتسم بصمت، وهو يدرك أن تلك الضحكة قد تكون آخر لحظة راحة قبل أن تبدأ رحلتهم الحقيقية نحو المجهول.

بعد العشاء، ودّعه حمد متعللاً بأنه سيذهب لتحضير أغراضه. عاد سعد إلى فندق التيسير القريب، جلس في غرفته يتأمل السقف الأبيض، بينما تتزاحم في رأسه الأسئلة:

هل كان ما يفعله شجاعة أم تهورًا؟

هل خُلق الإنسان ليطارد الحلم مهما كان الثمن؟

أطفأ المصباح أخيرًا، لكنه لم ينم...

فصوت أم كلثوم لا يزال يدور في رأسه:

"رجعوني عنيك"...

لكن هذه المرة، لم يعد هناك من طريق للعودة.

5- الحدود السعودية العراقية

مع بزوغ الفجر، حين كانت السماء ما تزال تتثاءب من نعاس الليل، نهض سعد وهو يشعر بأن هذا اليوم ليس كسائر الأيام. كان قلبه يخفق بإيقاعٍ غريب، مزيج من الحماس والرهبة، كأنه مقدم على امتحانٍ لا يعلم نتيجته. توضأ على عجل وصلى الفجر، ارتدى ثوبه الأبيض، وجهّز حقيبته الصغيرة التي أخفى فيها ما يدل على رحلته المريبة.

قاد سيارته نحو حيّ الخالدية، وهناك، عند منزل صغيرٍ محاطٍ بجدارٍ ترابيٍّ قديم، وجد حمد ينتظره متخفّياً خلف الباب كأنه لصٌّ يتهيأ للفرار. كان يطلّ بين الحين والآخر من خلف الجدار، ليتأكد أن لا أحد من الجيران يراه. أخبره والده قبل مغادرته أنه ذاهب إلى الرياض لإنهاء إجراءات استلام وثيقة التخرّج، فابتسم الأب راضيًا، وهو لا يدري أن ابنه على موعدٍ مع مغامرةٍ أخرى، مغامرة قد لا عودة منها.

ركب الصديقان السيارة، صمتٌ ثقيل يلفّهما. لم يكن هناك ما يقال، فالمغامرات الكبرى تبدأ عادة بالصمت. بعد دقائق من القيادة، اقترح حمد التوقف عند مطعمٍ صغيرٍ على الطريق الدولي لتناول الفطور. كان المطعم يعجّ بالمسافرين العابرين، روائح الشاي العدني تمتزج

بدخان الشواء، وصوت الراديو يصدح بأغنيةٍ قديمة لعبد الحليم.

جلسا على طاولةٍ قريبة من النافذة، طلبا فولًا وتميسًا وشايًا بالحليب، وكأنهما في نزهة عابرة لا أكثر. سعد كان عاجزًا عن بلع لقمة واحدة، يداه ترتجفان من الخوف، بينما كان حمد يأكل بشهيةٍ عالية، يضحك، ويتحدث كأن الأمور تسير بطبيعتها.

وقبل مغادرتهما المطعم، أخرج حمد من كيسٍ أسود سروالًا طويلًا مصمّمًا خصيصًا لتهريب العملة العراقية . مدّه نحو سعد وهو يهمس:

- البس هذا في دورة المياه، ولا تخف... كله تمام.

أحسّ سعد أن الدم تجمّد في عروقه، كانت يداه ترتجفان وهو يحمل السروال كمن يحمل سرًّا ثقيلًا. دخل دورة المياه وهو يحدّث نفسه:

- وش اللي ورّطني في هالجنون؟

لكنه في النهاية ارتداه، وعاد إلى الطاولة يحاول أن يبدو طبيعيًا، بينما قلبه يدق كطبول الحرب.

عندما خرجا، أصرّ حمد على قيادة السيارة. قال بابتسامةٍ واثقة:

-خلك مرتاح يا سعد، توترك بيخرب علينا، خلني أنا أتعامل معهم.

في أول لوحةٍ على الطريق كتب عليها:

"الحدود العراقية 90 كم"

كان سعد يغرق في عرقه رغم برودة المكيف، ينظر إلى اللوحة وكأنها إعلان النهاية، بينما حمد يغني بصوتٍ عالٍ مواويل عراقية، يصفّق على المقود ويهز رأسه بانشراحٍ يثير الدهشة.

اقتربا من المنفذ الحدودي السعودي، الاصطفاف بسيط والإجراءات روتينية. سلّم حمد الجوازين بابتسامةٍ عريضة، وردّ الموظف بلطفٍ متمنياً لهما "الشفاء للمريض" بعدما ادّعى أنهما ذاهبان للعراق للعلاج عند معالجٍ شعبيٍّ معروف.

خُتمت الجوازات بختم المغادرة، وهما يتبادلان النظرات الصامتة، كأنهما يقولان لبعضهما :بدأت اللعبة الآن.

لكن في الجهة الأخرى، المنفذ العراقي بدا مختلفًا تمامًا. وجوهٌ عابسة، جنودٌ يحملون بنادقهم بصرامة، واللافتات تذكّر الداخلين بأن البلاد في حالة حرب مع إيران.

وقف الموظف العراقي خلف النافذة، تفحّص الجوازات طويلاً، ثم رفع عينيه نحو سعد، حدّق به نظرةً جعلت قلبه يسقط في قدميه.

صوته كان خشنًا وهو يقول:

"ليش جايين؟ الحرب مشتعلة، ماكو سياحة هسه".

تلعثم سعد، لكن حمد تدخّل بسرعةٍ ودهاء:

"سيدي، إحنا جايين نعالج صاحبي... مريض ويريد معالج شعبي بالنجف".

ساد صمتٌ قصير، ثم ناولهم الموظف الجوازات مختومين، وقال بلهجةٍ صارمة:

"تسجّلون جوازاتكم في مبنى الأمن بالكرخ خلال ثلاثة أيام من وصولكم لبغداد... مفهوم؟"

هزّ الاثنان رأسيهما بسرعةٍ متوترة.

لكن المفاجأة لم تنتهِ بعد، فقد طلب الموظف منهم النزول من السيارة لتفتيشها. اقترب أحد الجنود ومعه كلب بوليسي أخذ يشمّ حول الأبواب والمقاعد. تجمّد سعد في مكانه، يده على جيبه، وعيناه على الكلب الذي يدور حولهم في صمتٍ مريب.
كانت الثواني تمرّ كالساعات، والعرق يتصبب من جبينه كأن كل قطرة تحمل سرّه المخبّأ.

وأخيرًا، أشار الجندي بيده أن يتقدّما.

-تفضلوا... الله وياكم.

تنفس سعد الصعداء بعمقٍ لم يعرفه من قبل، أما حمد فابتسم ابتسامة المنتصر وقال مازحًا:

-قلت لك يا رجل، محد يشك فينا!

تجاوزا بوابة المغادرة النهائية، والهواء الساخن يلفح وجهيهما.
كانت الصحراء تمتد على مدّ البصر، طريقٌ طويلٌ صامتٌ، تتخلله أعمدة كهرباء تلوّح كأنها مرايا باهتة في الأفق.

لم يكن في الطريق إلا بعض الشاحنات المتجهة إلى بغداد. وبعد ساعةٍ تقريبًا وصلا إلى مفترق النخيب، حيث ينقسم الطريق إلى فرعين: أحدهما شماليٌّ، والآخر شرقيٌّ يتجه نحو كربلاء.

تبادل الصديقان النظرات، ثم قال حمد وهو يشير إلى لوحةٍ معدنيةٍ كتب عليها:

"كربلاء 193 كم"

-من هنا، نبدأ الرحلة الحقيقية.

اختارا طريق الشرق، يمران بين مساحاتٍ منبسطة من القمح تلمع تحت الشمس كذهبٍ حيٍّ يمتد حتى الأفق.

كانت المزارع تنتشر على جانبي الطريق، والنسيم المحمّل بغبار الأرض يحمل رائحة الحقول الناضجة. ولوهلةٍ، نسي سعد كل خوفه، ونظر نحو السماء الشاسعة وهمس لنفسه:

"يمكن فعلاً، المغامرة تستحق هذا العناء".

6- كربلاء

عندما بدأت مآذن كربلاء تلوح لهما من بعيد، شعر سعد بأن صدره يتحرر من ثقل الخوف الذي لازمه منذ أن عبر بوابة العراق. الهواء هنا بدا مختلفًا، يحمل شيئًا من رهبة التاريخ وعبق المآسي القديمة، كأن الريح تهمس له بأسرارٍ لم تبح بها كتب التاريخ.

أمسك بزجاجة الماء، رشفتان بللتا حلقه اليابس، ثم قال بصوتٍ خافتٍ يحمل مزيجًا من التأمل والمرارة:

-تدري يا حمد ليش سموها كربلاء؟ لأن فيها كرّ وبلاء .تخاذل أهلها عن نصرة الإمام الحسين بعد ما لبّوا نداءه، جاي من المدينة المنورة يظنهم ناصرينه، لكنهم خذلوه.

نظر إليه حمد وهو يقود السيارة ببطءٍ على الطريق الترابي المؤدي إلى مدخل المدينة. كانت حركة الشوارع محدودة، المارة قلة، وصمتٌ ثقيل يخيّم على المكان كأنه سكون ما قبل العاصفة. قال مازحًا ليكسر رهبة الموقف:

-أيها المؤرخ، اليوم بتشوف التاريخ الحيّ بعينك. دوّن كل شي... وصوّر. العراق كتاب مفتوح للتاريخ.

دخلوا المدينة القديمة، وكل ما حولهم كان يشي برائحة البارود. جدران رمادية، شبابيك مكسّرة، ووجوه متعبة تعيش هدنةً غير معلنة مع الحرب. كانت كربلاء مدينة محايدة في الحرب، لكنها لم تسلم من لعناتها.

توقفوا أمام مطعمٍ صغير في أحد الأزقة القديمة، تتصاعد منه روائح الشواء والبهارات العراقية الثقيلة. خرج إليهم نادل يعرج قليلًا، لكن صوته كان قويًا واثقًا. رحّب بهم بحفاوة، ثم بدأ يسرد قائمة طويلة من الأطباق العراقية الشهية بلهجةٍ مليئة بالحياة:
-عدنا باجة، دولمة، مشاوي، تمن بسمتي... شتريدون؟

ابتسم سعد وقال:

-هات لنا من كل الأصناف، نتذوق العراق بالأكل أول قبل ما نذوقه بالعيون.

ما هي إلا دقائق حتى امتلأت الطاولة بما لذّ وطاب. بخار المشويات يتراقص في الهواء، ورائحة الدولمة تختلط بنكهة الخبز التنور. أكلوا بصمتٍ كأنهم في طقسٍ مقدّس، حتى ثقل الطعام في أجسادهم وأرخى عليهم الخمول.

عاد النادل، وضع أمامهم استكانات الشاي العراقي القوي وقال:

-هسه تشربون وتنسون الدنيا.

تجرّع سعد الشاي، وابتسم للوهلة الأولى منذ عبوره الحدود. سأل حمد النادل عن إصابته، فجلس الرجل معهم وهو يضحك:

-إصابة رجلي، من الحرب. رصاصة غادرة هجمت علي، بس بعدني أمشي.

ثم تغيرت ملامحه فجأة، وبدأ يسبّ الحرب ويلعنها، لكن ما لبث أن التفت يمينًا ويسارًا، وراح يغني بصوتٍ مرتفع:

"الله يخلي الريّس... الله يطوّل عمره"!

تبادل سعد وحمد النظرات الصامتة. في العراق، حتى الجرح لا يُقال دون غناءٍ يمجّد السلطة.

قبل أن يغادروا، وصف لهم النادل عنوان فندقٍ شهيرٍ في وسط المدينة، يقيم فيه الزوّار القادمون من الخارج. توجهوا إليه سيرًا على الأقدام، يمران بين الأزقة الضيقة التي تفوح منها رائحة الحطب والديزل، والأطفال يلعبون بعجلاتٍ صدئة على حواف الطريق.

عند مدخل الفندق، استقبلهم موظف استقبالٍ أربعينيّ الوجه، عريض الابتسامة. ما إن عرف أنهم من السعودية حتى قال بلهجةٍ عراقيةٍ مليئة بالحماسة:
-هلا بيكم، أنتو أول زوار من السعودية من بدت الحرب! يمكن هاي بشارة خير... الحرب خلصت إن شاء الله.

أعطاهم جناحًا صغيرًا يطل على مرقد الأمام الحسين، بثمنٍ بخس لا يتجاوز خمسين دينارًا عراقيًا، ثم راح يعدد لهم أسماء المشاهير الذين أقاموا في ذلك الجناح من رجال الدين والسياسة.

لم يعيروه اهتمامًا كبيرًا، كان التعب يسيطر عليهم. تمدد سعد على السرير، والستائر نصف مغلقة، والمدينة من خلف النافذة تبكي بصمت.

حين أفاقا عند المساء، كانت المآذن قد تلونت بالأخضر، والأضواء تنساب فوق القباب.

خرجا يتجولان في أزقة كربلاء القديمة .كان الزوار يسيرون ببطء، أكثرهم من كبار السنّ، وجوههم شاحبة، عيونهم غارقة في الحزن. سمعا امرأة عجوز تقف عند بوابة المرقد تبكي وتناجي:

"يا سيدي ردّ لي ابني من الجبهة، ما إلي غيره".

توقف سعد للحظة، شعر أن المدينة كلها تنزف من قلبها. الناس هنا لا يبتسمون، لا يضحكون، كأن الحزن جزء من هوائها، يلتصق بالوجوه والملابس والجدران.

تكلم سعد بصوتٍ خافتٍ وهو ينظر إلى قبة المرقد المتوهجة:
-كربلاء يا حمد، مدينة تبكي منذ قرون... وما زال بكاؤها مستمر.

عادا إلى الفندق وهما مثقلان بالتعب والدهشة. لم يجدا ما يقولانه. جلسا صامتين، ينظران من النافذة إلى المدينة التي تغفو تحت أضواءٍ خضراء باهتة. تكلم سعد أخيرًا، وهو يحدّق في الفراغ:

-يمكن النوم هو الشيء الوحيد اللي ما زال آمن في هذه المدينة.

أطفآ الأنوار، واستسلما للنوم، بينما في الخارج كانت الرياح تمرّ على مآذن كربلاء كأنها أنين التاريخ لا يريد أن يصمت.

7- النجف

مع تباشير الصباح التالية، غادرا كربلاء متجهين غربًا نحو قصر الأخيضر، الذي يبعد نحو خمسين كيلومترًا. كان الطريق يمتدّ بين كثبان رملية وصحراء صامتة كأنها تُخفي أسرار قرونٍ من التاريخ. وعندما لاح لهما القصر من بعيد، بدت أسواره الضخمة كأنها أطلال حصنٍ نجا من قبضة الزمن، يواجه الرياح والفراغ بصمودٍ مهيب.

وقف سعد مذهولًا أمام الجدران العالية التي رسمت على وجهها الشمس خطوطها القاسية، وقال متأملًا:
-تخيّل يا حمد، كم من جيوشٍ مرت من هنا؟ وكم من أجيالٍ عاشت ثم تلاشت، وبقيت هذه الحجارة تشهد؟

كان القصر صامتًا، لا أثر لحارسٍ ولا سائحٍ، كأنه معزول عن ضجيج الحياة. دخلاه يتجولان بين الممرات المتشققة، وقد علقت في ذهنيهما آلاف الأسئلة التي لم يجدوا لها جوابًا. وحده المحراب الصغير في ركنٍ من الأركان كان الدليل الأكيد على أن القصر شُيّد في عهدٍ إسلامي، فالمسجد لا يكذب في هوية المكان.

وثّق سعد جولة التصوير بكاميرته الفوتوغرافية، بينما جلس حمد مستظلًا بظل جدارٍ سميك، يتأمل السكون ويفكر في تلك العظمة التي لم تبقَ منها إلا أطلال. وعندما

انتهى سعد من تصويره، عادا أدراجهما نحو النجف، يتبادلان الحديث عن غموض التاريخ، وكأنهما يحاولان فكّ شفرةٍ عجز عنها الزمن.

في طريق العودة، توقفا عند مطعمٍ شعبيٍّ على جانب الطريق. كان المكان بسيطًا لكنه ينبض بالحياة. جلسا على طاولةٍ خشبية، وأمامهما طبقٌ من الباجة التي سرعان ما أصبحت وجبتهما المفضلة في العراق. كان صوت المغنّي العراقي يملأ المكان بمواويل حزينة تنزف من قلب الحرب، تروي همّ الناس وتسكب الدموع في نغمةٍ منكسرة.

تكلم سعد وهو ينظر حوله:

-يبدو أن الحزن هنا صار عادة... بل صار ملجأهم الوحيد للهرب من واقعٍ لا يُطاق.

كان روّاد المطعم يشربون الشاي الثقيل بعد الإفطار، ثم يشعلون سجائرهم بتتابعٍ لا ينقطع، حتى غطّى الدخان السقف كغيمةٍ رمادية من الأسى.

بعد استراحةٍ قصيرة، واصلا الرحلة نحو النجف التي لم تكن تبعد سوى ساعةٍ عن كربلاء. مرّا بقرى صغيرة، تحيط بها الحسينيات التي تشبه المساجد في عمارتها، يعلوها الحزن مثل ظلٍّ دائم. وما إن وصلا مشارف المدينة حتى أحسّا أنهما دخلا عالمًا يسكنه الموت.

كانت النجف مدينةً تتنفس عبر مقابرها، كأن الحياة فيها تسكن إلى جوار الأموات. شواهد القبور تمتدّ بلا نهاية، ومآذن المراقد تتجاور مع بيوتٍ هادئةٍ كأنها تنتظر دورها.

قرأ لوحاتٍ تشير إلى مراقد الأنبياء نوح وصالح وهود عليهم السلام، حتى بلغا وادي السلام، المقبرة الأكبر في العالم، تمتد على مدّ البصر، تُذكّر الداخل إليها بأن الحياة ظلٌّ زائل.

رائحة الموت تعبق في الأجواء، وصوت النواح يعلو من هنا وهناك. توقّفا بالقرب من مرقد الإمام علي رضي الله عنه، تكلم حمد وهو ينزل من السيارة:
-سأبحث عن فندقٍ مناسب، انتظرني هنا.

مرّ الوقت بطيئًا، وكل دقيقة تمرّ كانت تزيد من قلق سعد، حتى عاد حمد بعد غيابٍ طويل، يحمل على وجهه ابتسامةً مريبةً تخفي وراءها سرًّا.

سأله سعد بفضول:

-تأخرت يا رجل، أين كنت؟

ضحك حمد وقال وهو يشير إلى المبنى القريب:
-وجدت لنا فندقًا رائعًا... بسعرٍ لا يُقاوم!

لم يكن شكل الفندق يوحي بالراحة، واجهته باهتة وأبوابه صدئة، لكن ما إن دخلا حتى تبدّل الانطباع تمامًا.

استقبلتهما فتاة عراقية محجّبة، وجهها يشعّ بنورٍ خافتٍ وجمالٍ يأسر النظر. كانت تتحدث بلباقة، وتشرح لهما مرافق الفندق، بينما كانا مشغولين (لا بحديثها) بل بتفاصيل وجهها الهادئ، وابتسامتها التي تبعث الدفء وسط مدينةٍ يغمرها الحزن.

اقترب عامل الحقائب ليحمل أمتعتهما، فتبعا خطواته وهما ما يزالان تحت تأثير تلك اللحظة الغريبة. في الغرفة، جلس حمد على السرير وهو يضحك بلا سبب، شعر حمد بصداع لذا سأل:

-عندك حبوب صداع؟ والله من يوم شفت البنت، رجع لي إحساس أني حيّ!

ثم أضاف وهو يتنهّد بعمق:

-توقّفت عن كتابة الشعر منذ أن غصت في كتب التاريخ، كنت أظن أن الماضي وحده يستحق التأمل، لكن اليوم... أيقنت أن الجمال قادر أن يوقظ الشعر النائم في قلبي.

ضحك سعد بصوتٍ خافت وقال:

-لا تكثر تأمل يا شاعر، نحن هنا للسياحة لا للغزل! لكن حمد لم يرد. اكتفى بابتسامةٍ شاردة، غادر بعدها إلى غرفته وهو ما يزال يعيش نشوة اللقاء، تاركًا خلفه صديقه

يبتسم في صمت، مدركًا أن الحياة (حتى في مدينةٍ كئيبة كالنجف) قادرة على أن تبعث دفء الروح من جديد.

8- النجف

مع انحدار الشمس نحو الغروب، نهض حمد من نومه مثقلاً برأسٍ يدور كأنه خرج لتوه من حلمٍ طويل. كانت الغرفة تسبح في ضوءٍ ذهبي خافتٍ يتسلل من نافذتها المطلة على وسط النجف، فتبدو المدينة كلوحةٍ من غبارٍ وذهب.

غسل وجهه، ثم أعدّ دله القهوة السعودية بيديه بعناية، ورتّب صحنًا صغيرًا من التمر، ودعا سعد لمشاركته جلسته. عندما دخل سعد، لاحظ سلة المهملات ممتلئة بالأوراق الممزقة، فاقترب يلتقط إحداها مبتسمًا، وقرأ بصوتٍ عالٍ:

-عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السحر...

ثم التفت نحو صديقه مازحًا:

-يا رجل، يبدو أن قريحتك تحتاج إلى اشتراك، بدأت بمطلع "أنشودة المطر" للسيّاب!

ضحك حمد وهو يمد له فنجان القهوة، قائلاً بصوتٍ متعبٍ يختلط بالمرح:

-يقولون: "لكل شاعرٍ شيطانٌ يُلهمه"، بحثت عن شيطاني هذا فلم أجده، فوجدت الفراش يرحب بي بدلاً منه. نمت... ورأيتُ نفسي أعيش أجمل حلمٍ في حياتي.

رفع سعد حاجبيه باهتمام، فقال حمد وهو يحدّق في فنجانه كأنه يرى فيه صورة حلمه:

-تخيّلت أني تزوجت فتاة الاستقبال الجميلة، وعدت بها إلى عرعر... كان أهلي يحتفون بها كأنها واحدةٌ من الأسرة. أقاموا لنا وليمة زواجٍ كبيرة، وكان الجميع سعداء.... لكن حين رأيتك، أفقتُ من نومي مكتئبًا!

قهقه سعد حتى دمعت عيناه وقال ضاحكًا:

-المعذرة يا صديقي، في المرة القادمة سأرسل لك إشعارًا قبل أن أظهر في أحلامك!

ضحكا طويلاً، ضحكًا صافيًا كأنه يطرد عن روحيهما غبار المدن الحزينة التي مرا بها. كانت لحظة إنسانية صغيرة، لكنها بدت لهما كأنها نزهة في الفرح وسط بحرٍ من الكآبة.

بعد أن ارتشفا قهوتهما واستعادت الأرواح حيويتها، نهضا لتجهيز نفسيهما للجولة المسائية في محيط مرقد الإمام علي رضي الله عنه، قبل أن يتلاشى الضوء الأخير من النهار.

وعندما نزلا إلى بهو الفندق، فوجئا بأن فتاة الاستقبال التي خطفت خيال حمد قد اختفت، وحلّ محلها رجل معمم بوجهٍ عابس. ألقيا عليه التحية، فردّ ببرودٍ خالٍ من الود، مما زاد شعور الغربة في قلبيهما.

خرج الاثنان إلى الشارع، وكان الجو يميل إلى حرارةٍ معتدلة، يهب عليهما نسيمٌ دافئ من جهة البحيرات القريبة من المدينة. الشوارع تعجّ بوجوهٍ متعبة، نساءٌ يرتدين عباءاتٍ سوداء ووجوههن مكشوفةً، لا يبتسمن لأحد، كأن الحزن نقش على ملامحهن نقشًا.

في الطرقات، يسير أصحاب العمائم يتقدّمون مواكب من النساء والعجائز اللواتي يرددن الأدعية والأناشيد بنغمةٍ حزينةٍ تميل إلى المقامات العراقية، فتغدو النجف كأنها تُنشد مرثيةً جماعية للحياة.

كانا يسيران بصمتٍ بين الحشود. لم يكن أحد يلتفت إليهما، فالناس منشغلون بأنفسهم وبأوجاعهم. أصوات الأنين تتسلل من الزوايا، وأمهاتٌ يهمسن بأسماء أبنائهن المفقودين في الجبهات، بينما الخوف من بطش السلطة يجعل الجميع يتمسّكون بالأضرحة كأنها ملاذ النجاة الأخير.

تكررت المشاهد ذاتها في كل اتجاه: وجوهٌ واجمة، نظراتٌ تائهة، وأطفالٌ صغار يلعبون على الأرصفة غير

مدركين لثقل المأساة. وحدهم الأطفال بدوا كأنهم بقع ضوءٍ صغيرة في ليلٍ طويل.

جلس الصديقان في مقهى قديمٍ وسط السوق العتيق، يراقبان حركة الناس بين دكاكين ضيقةٍ وبضائع قليلةٍ أكلها الغبار. الباعة ينادون بخفوتٍ، والمتسوقون يساومون بتثاقلٍ كأنهم يشترون تعبًا لا حاجات. لاحظ سعد أن البضائع أغلبها من أنواعٍ قديمةٍ اختفت من الأسواق السعودية منذ زمن، فضحك قائلاً:
-يبدو أن هنا... الماضي لا يغادر الرفوف!

مع غروب الشمس، قررا تناول العشاء في مطعم مشوياتٍ شعبي مزدحم .كان الجو مليئًا برائحة الفحم والبهارات. جلسا في زاويةٍ صغيرة، وما إن انتهيا من طعامهما حتى رفض صاحب المطعم أخذ الحساب وهو يقول بلهجةٍ ودودةٍ يغلبها الاحترام:

-أنتم من زوار الإمام علي؟ أنتم ضيوف عندنا، الكرم واجب.

نظر سعد إلى حمد وابتسم، ثم قال بصوتٍ خافتٍ لا يسمعه إلا صاحبه:

-لا يعلم الرجل أننا لسنا زوّارًا... نحن فقط عابران نحاول أن نكتشف وجهًا آخر للتاريخ.

غادرا المطعم ببطء، يسيران تحت ضوء مصابيحٍ خافتةٍ تتمايل مع الريـح، والنجف من حولهما تغفو كأنها مدينةٌ مرهقة من البكاء.

9- بين النجف وبغداد

مع إشراقة الصباح، غادر الاثنان الفندق، والنسيم يحمل معه رائحة الأرض بعد سكون الليل. في البهو، كانت فتاة الاستقبال قد عادت إلى عملها؛ تلك التي أسرَت فؤاد حمد منذ اللحظة الأولى، فعادت مشاعره تتدفق كجدولٍ رقراقٍ بعد انحباسٍ طويل. أخذ يختلس النظرات خلسة، وكأنه يرتشف من ملامحها الجمال قطرةً قطرة، ثم تمتم بصوتٍ خافتٍ يشبه الغناء:

-ودعتِ بدراً بالنجفِ، لكنه... لم يُودّع مقلتي.

كان في حضرة الجمال، والجمال في حضرة الصمت؛ إذ لا يجيد اللسان وصف ما تُترجمه العين. تأخر حمد على صديقه سعد الذي ينتظره في السيارة، وهو يحاول سرقة لحظاتٍ إضافية لتكتحل عيناه بذلك الوجه الصباحي المشرق.

اقترب منه سعد ضاحكًا، وقال وهو يشدّه من ذراعه:
-أنت تتطاول على الماجدات يا صاحبي، لك النظرة الأولى، لكن لا تُشعل الرهبة في قلوب الناس! لا أريد أن أعود إلى السعودية وأنا أحمل معي جثمان عاشقٍ مولع!

ضحك سعد بمرحٍ خفيف، بينما ظل حمد صامتًا، تائهًا في عالمٍ آخر، كأنما روحه لم تغادر النجف بعد، ولم

يشعر بحركة السيارة التي أخذت تشق طريقها نحو بغداد.

ساعتان ونصف من السير مرا كأنهما حلمٌ عابر. على جانبي الطريق تتعاقب القرى والمدن، وعلى الجدران والميادين ترتفع صور صدام حسين :تارةً ببدلته العسكرية ونظراته الصارمة، وتارةً أخرى مبتسمًا رافعًا يده، وثالثةً يحتضن أبناءه.

كل لوحةٍ كانت تروي قصة سلطةٍ لا تغيب عن البصر، ولا تترك للهواء حرية التنفس.

حين وصلا بغداد، أحسّا أنهما دخلا إلى فصلٍ من كتاب التاريخ؛ فكل زاوية فيها تنبض بحكاية، وكل جدار يهمس باسمٍ من أسماء الخلفاء العباسيين الذين بنوا هنا عاصمة الدنيا.

لكن بغداد التي كانت في المخيلة غير بغداد التي رأياها: اختفت الملابس الشعبية، وبرزت الأزياء الحديثة، إلا أن شيئًا ما ظل عالقًا في الأفق ...سحابة حزنٍ كثيفة تخيّم على الوجوه. الناس يمشون في صمتٍ متعب، لا أثر لابتسامةٍ صادقة، كأن المدينة فقدت شهيتها للحياة.

في فندق المنصور المطل على نهر دجلة، استقبلهم موظفٌ بابتسامةٍ رسميةٍ تشبه الأقنعة، طلب منهم دفع أجرة يومٍ مقدّمًا، فبادر سعد بدفع أسبوعٍ كامل.

اعتذر الموظف بأدبٍ عن عدم توفر الأجنحة الفاخرة قائلاً:

-إنّها محجوزةٌ لضيوف الدولة.

خصّص لهم جناحًا صغيرًا، مطلٌ على نهر دجلة، فكان المنظر كافياً ليمحو شيئًا من عناء الطريق.

وقف حمد أمام النافذة، يتأمل نهر دجلة وهو يشق قلب العاصمة، فشعر أن التعب يتبدد.

قال وهو يتنفس بعمق:

-كيف وصلنا بغداد بهذه السرعة؟

ضحك سعد ورد مازحًا:

-لقد وضعتُ السيارة على بساط الريح! نحن ضيوف سندباد، والوقت عنده لا يُقاس بالساعات.

ضحك حمد، ضحكةً حقيقية بعد غياب، كأنها أوّل إشراقة في روحه منذ أيام.

من الدور العاشر، بدا لهم المشهد الآسر: بغداد تتراءى كصفحةٍ من التاريخ، تتقلب فيها الصور بين مجدٍ تليد وخرابٍ عظيم.

كأن المدينة ما تزال تحمل رائحة الدمار الذي خلّفه هولاكو، ففكرُه التدميري (كما قال سعد) ورثته الأحزاب

والقبائل، حتى غدت مدينة الموت بعدما كانت مدينة الحياة.

جلسا بصمتٍ أمام المشهد، يراقبان المدينة التي طالما حلما بزيارتها. كانت بغداد بالنسبة لهما بوابة التاريـخ، مدينةً كُتب مجدها بالحبر أولاً، ثم بالدم والدموع لاحقًا.

في المساء، جلسا في الجناح الفخم، وسعد يشغّل التلفاز، فانطلقت أناشيد تمجّد الرئيس، تملأ المكان بصدى الشعارات.

وفجأةً انقطع البثّ، وظهر مذيعٌ كثّ الشوارب، عاقد الحاجبين، صوته غليظٌ يقرأ بيانًا من "القيادة العامة." اعتقدا أنه قرارٌ مصيري، لكن سرعان ما ظهرت على الشاشة ثلاثةُ شبانٍ معصوبي الأعين، والمذيع يعلن بجمودٍ:

-لقد تشاجروا في حديقة الزوراء، وأحدثوا فوضى... لذا صدر الحكم بإعدامهم فورًا.

تجمّد الدم في عروق حمد، وسارع إلى إغلاق التلفاز قبل أن يُبثّ مشهد الإعدام.

جلس في صمتٍ ثقيل، وقال بصوتٍ خافت:

-كنا نقرأ عن الدكتاتورية في كتب الجامعة... لكننا نراها الآن أمام أعيننا.

عم السكون بالغرفة، ولم يعد يُسمع سوى أنفاسهما المضطربة، وصوت دجلة وهو يواصل جريانه... كأنه وحده يحتفظ بسرّ هذه المدينة التي تبتسم بنصف فم وتبكي بالنصف الآخر.

10- بغداد

حين حلَّ المساء، قرّرا أن يتنزها مشيًا على الأقدام، رغبةً في استنشاق نسيم دجلة العليل بعد يومٍ طويل من الرحلة. كانا يتوقان إلى أن يلامس الهواء وجهيهما، وأن يستشعرا دفءَ المدينة التي طالما حلمَا بها.

لكن المفاجأة كانت في انتظارهم. فبينما هما يقتربان من ضفاف النهر، أوقفهما أحد الحراس بصرامةٍ وقال بلهجةٍ آمرة:

-التجوال ليلاً ممنوع... هذه تعليمات رسمية.

تبادلا النظرات بدهشةٍ وشيءٍ من الخيبة، وعادا أدراجهما نحو الفندق بخطواتٍ ثقيلة في الغرفة، عمّ الصمت. لم يعرفا بماذا يشغلان وقتهما، حتى الستائر فُرض عليها أن تكون مسدله بإحكام، وأي خيطٍ من نورٍ يتسلل إلى الخارج يُعدّ مخالفةً..

كانا يظنان أن الليلة ستمرّ بهدوء، لكن صفارات الإنذار دوّت فجأة، تمزق سكون المكان بصوتٍ مدوٍّ يخترق الأعصاب.

قفزا من مقعديهما، وأسرعا إلى إطفاء الأنوار، ليغرقا في ظلامٍ دامس .جلسا متلاصقين، يترقبان ما سيحدث، والاحتمالات السوداء تتزاحم في رأسيهما:

-هل هو قصف جوي؟ أم صاروخي؟ هل الحرب على الأبواب؟

رنّ الهاتف فجأة، فارتجف حمد قبل أن يمدّ يده ويرفع السماعة. كان موظف الاستقبال بصوتٍ خافتٍ يقول:

-لا تقلقا يا سادة... هذا إجراءٌ اعتيادي. كل ليلةٍ تُطلق الصفارات، حتى صرنا لا ننام في منازلنا إلا بصحبتها. بعد ثلاثة أيام... ستتعودون عليها.

أغلق السماعة، تبادلا نظرةً طويلةً غلب عليها القلق والأسى.
مرت تلك الليلة الأولى عليهما في بغداد كأنها دهرٌ من القلق والاغتراب .أدركا أنهما ليسا في مدينةٍ عادية، بل في عاصمةٍ تختنق تحت قبضة الخوف.

في الصباح التالي، قررا أن يبدآ بإنهاء معاملاتهما. استقلا سيارة أجرة متجهين نحو مكتب تسجيل الجوازات في الكرخ.

كان السائق يتحدث كثيرًا، يحاول التخفيف من التوتر الذي يملأ السيارة. خلال الطريق، رفع يده ليشير إلى أحد معالم بغداد، فانكشف مسدسٌ صغير تحت قميصه.

ساد صمتٌ ثقيل، ولم يجرؤ أيٌّ منهما على التعليق. ابتسما ابتسامةً باهتة، تُخفي وراءها خوفًا حقيقيًا. لاحظ السائق ارتباكهما، فقال ضاحكًا:

-لا تقلقا، حملي للسلاح قانوني... أحملُه لأحمي الركاب عند الحاجة.

وصلا إلى المكتب، فودعهما السائق بابتسامةٍ عريضةٍ لا تخلو من غموض. جلسا على الرصيف ينتظران بدء الدوام الرسمي، والناس من حولهم يتصرفون وكأن شيئًا لا يخيفهم. كانت الوجوه متعبة لكن فيها نوعٌ من الاستسلام الصامت، كأن الخوف صار جزءًا من الهواء.

وفجأة، دوّى صراخٌ في الجهة المقابلة. التفتا ليشاهدا عراكًا عنيفًا بين رجلين ضخمَي الجثة. تطايرت الشتائم، ثم ظهرت السكاكين، وتحوّل المشهد إلى معركةٍ حقيقيةٍ تناثرت فيها الدماء، حتى تبللت ثيابهما.

لم يتدخل أحد، وكأن المشهد مألوفٌ لدى الناس، ثم تفرّق الجمع كأن شيئًا لم يكن.

عندما فُتحت أبواب المكتب أخيرًا، دخلا بخطواتٍ مترددة.
كانت القاعة مقسّمةً على جنسياتٍ مختلفة، ودول الخليج في الدور الثاني. المكان شبه خاوٍ، الجو ثقيل، والموظف خلف المكتب يُدخن سيجارته بلا مبالاةٍ ظاهرة.
قدّما جوازيهما، فناولَهما ورقةً لتعبئة المعلومات. توقفا عند خانةٍ غريبة"القومية"لم يفهما المقصود. وحين لاحظ الموظف ترددهما، نظر إليهما بازدراءٍ، ثم قال بسخريةٍ جارحة:

-أنتم لا تعرفون ما هي قوميتكم!

ورمى الأوراق على الطاولة باستهزاء.

تبادلا النظرات، ثم كتبا بخطٍ متردد :(العربية). أخذ الموظف الأوراق منهم، وقلبها ببرود، ثم ختمها على مضض، كأنه يمنّ عليهما بالعروبة.

قال بصوتٍ متجهمٍ وهو يمدّ الجوازين:

-يحق لكما البقاء في الجمهورية العراقية ثلاثين يومًا من تاريخ الدخول.

خرجَا وهما يشعران أن هذه الختمة ليست مجرد إجراءٍ إداري، بل علامة قبولٍ مؤقتة في أرضٍ لا تطمئن لأحد.

استقلا سيارة أجرة أخرى إلى شارع الرشيد الشهير، ونزلا في ساحة الميدان عند بدايته. كان الشارع الذي سمعا عنه في الكتب أشبه بظلٍّ باهتٍ لتاريخه العريق.

المحال مغلقة، والحركة خافتة، حتى سوق الشورجة الشعبي بدا خاليًا إلا من قلةٍ من الزوار. دخلا متجرًا صغيرًا لبيع الملابس، واختارا بعض القمصان والبدلات بطريقةٍ عشوائية، والبائع لا يتحرك من مكانه، يمدّ يده للسلعة دون أن ينهض، وكأنه تعب من الحياة نفسها.

وفي أثناء تجوالهما، وقفا أمام تمثال الشاعر معروف الرصافي، شامخًا وسط الساحة، غارقًا في غبار المدينة. قال سعد بحزنٍ وهو يتأمل وجه التمثال:

-لو كان حيًّا... لرثى حال بغداد بدموعٍ من نار.

تابعا سيرهما حتى وصلا إلى مبنى متهالكٍ كُتب عليه : (المتحف البغدادي)، لكن الباب مغلقٌ بإحكام، مثلما أُغلقت كل مظاهر الحياة في هذه المدينة التي تنام على خوفٍ وتصحو على صبر.

انتهت جولتهما في مطعمٍ مطلٍّ على ضفاف دجلة، أمام جسر الجمهورية الشهير.

طلبا سمك المسكوف، الطبق الذي سمعا عنه كثيرًا، وأكلا منه بشهيةٍ كبيرة، حتى شعرَا بالتخمة.

كانت النكهة لذيذة، لكن في عمقها شيءٌ من المرارة، كأن طعم الحزن تسلل حتى إلى الطعام.

جلسا صامتين بعد العشاء، يراقبان دجلة وهو يواصل جريانه، يتساءلان في داخلهما:

-هل النهر يبكي لبغداد... أم يغسل ذنوبها كل مساء؟

11- بغداد

كانت العودة إلى فندق المنصور تشبه عودة طائرٍ إلى قفصه، لا اختيارًا بل اضطرارًا. الليل في بغداد لا يشبه أي ليلٍ آخر؛ ما إن أسدل ستاره الثقيل حتى بدت المدينة كأنها ترتدي عباءةً من الظلام الموحش، تلتف حول نفسها اتقاءً للمجهول الذي قد ينفجر في أية لحظة. حتى الهواء كان يحمل أنينًا مكتومًا، وكأن كل ذرةٍ منه تحفظ سرًّا من أسرار الحرب.

جلسا في بهو الفندق، يتأملان حركة النزلاء الذين يتنقلون في صمتٍ حذر. كان أغلبهم من مراسلي وسائل الإعلام الأجنبية، وجوههم شاحبة، وملامحهم مرهقة، تحمل آثار سفرٍ طويل من الصفوف الأمامية حيث يلتقطون صور الموت من زوايا مختلفة.

كل واحدٍ منهم يجلس أمام فنجان قهوته كأنه يراجع في داخله مشهدًا لم يُعرض بعد، أو يبحث عن جملةٍ مناسبةٍ يصف بها ما لا يُوصف.

تقدّم النادل بخطواتٍ واثقة وابتسامةٍ متكلّفة، يسألهم عمّا يرغبون به. طلبا قهوة تركية، فاختفى برهةً خلف البار ثم عاد يحمل صينيته بيدٍ ثابتة، ووضع

الفناجين أمامهما بعنايةٍ لافتة. لكن قبل أن يبتعد، قطع سعد لحظة الصمت بسؤالٍ أربكه:

-هل هذا الفندق آمن؟ أعني... هل يمكن أن يتعرّض للقصف الإيراني؟ لا سمح الله؟

تجمّد النادل لحظة، وكأنه سمع شيئًا محرّمًا. نظر حوله بحذرٍ، ثم انحنى قليلًا وهمس في أذن سعد:

-هذا الفندق من أكثر الأماكن أمانًا في بغداد ... الإيرانيون يعرفون أن أغلب نزلائه من المراسلين الأجانب، ولا يريدون تأليب الرأي العام العالمي عليهم.

ثم انصرف مسرعًا، وكأن حديثه ذاك قد يُكلفه حياته لو سُمع. لكن كلماته، رغم همسها، بثّت شيئًا من الطمأنينة في قلبيهما؛ أمان مؤقت وسط بحرٍ من القلق.

كانت تلك الليلة مختلفة عن سابقتها. لم تُطلق صفارات الإنذار، ولم يختنق الليل بأصوات القذائف.

بل حلّ سكونٌ ثقيلٌ تخلله صوت موسيقيٍ أجنبيةٍ يتسلّل من الطابق الأخير للفندق، حيث يقع المرقص المخصص للصحافيين والمراسلين. ارتسمت على وجهيهما ابتسامة فضولٍ طفولية، قرّرا أن يلقيا نظرة.

ارتديا البدلات التي اشتروها من شارع الرشيد في اليوم السابق، لكن المقاسات الواسعة جعلتهما يبدوان وكأنهما خرجا من مشهدٍ كوميديٍّ غير مقصود.

صعدا المصعد، وما إن فُتح الباب حتى باغتهما ضوءٌ ملونٌ مختلطٌ بصخب الموسيقى. خطوا خطوةً واحدة إلى الأمام، فإذا برجلٍ ضخم الجثة، مفتول العضلات، يقطع عليهما الطريق.

قال بإنجليزيةٍ متكسّرةٍ امتزجت بالعربية:

-هذا المكان للكَبَلز فقط... للمراسلين الأجانب. العرب... لا يسمح لهم بالدخول.

لم يفهما تمامًا معنى كلمة (كبلز)، لكن نبرة صوته كانت كافية لزرع الخوف في قلبيهما. تراجعا بهدوء، دون نقاشٍ أو اعتراض، وغادرا المكان بخطواتٍ سريعةٍ، تعكسان خليطًا من الإحراج والغرابة.

عندما عادا إلى غرفتهما، جلسا قرب النافذة يطلان على نهر دجلة الذي بدا في الليل كأنه شريطٌ من السواد يتحرك ببطءٍ بين ضفّتين خائفتين.

أعدّا الشاي، وراحا يتحدثان عن المفارقة الموجعة التي يريانها كل يوم:

في النهار، المدينة تبدو كأنها تعيش حياةً طبيعية، الأسواق مفتوحة، والناس يبتسمون رغم التعب، كأنهم يرفضون الاعتراف بالخطر.

لكن ما إن يحلّ الليل، حتى ينقلب المشهد تمامًا؛ الوجوه تختفي خلف النوافذ، الشوارع تصمت، والقلوب تخفق في انتظار صافرةٍ تنذر بقصفٍ جديد.

قال حمد وهو يحدّق في العتمة:

-العجيب يا سعد... أن الناس هنا يتعايشون مع الخوف كما نتعايش نحن مع الهواء، كأنه صار جزءًا من دورة الحياة اليومية.

ابتسم سعد وقال وهو يطفئ آخر أنوار الغرفة:

-في بغداد، حتى الأمان يحتاج تصريح إقامة.

وسكتا، ليستسلما لليلٍ غامضٍ لا يشبه أي ليلٍ عرفاه من قبل، ليلٍ يختبئ فيه الموت خلف صمت الفنادق الفخمة، ويطلّ الخوف من كل زاوية، حتى القمر نفسه بدا وكأنه يراقب بغداد بخوفٍ من أن يُقصف هو الآخر.

12- بغداد

كان صباح بغداد مختلفًا، كأن المدينة استيقظت من غيبوبة طويلة. الهواء دافئ يحمل رائحة الخبز الطازج، والناس تملأ الشوارع بخطواتٍ مترددة، كأنهم يعودون للحياة بعد أن لامسوا الموت.

تجوّلا في وسط المدينة متجهين نحو ساحة الفردوس، حيث يقف تمثال صدام حسين شامخًا في مواجهة السماء، يفرض هيبته على المارة كأن عيونه تراقبهم من علٍ.

تابعا المسير نحو الرصافة بلا وجهة محددة، حتى صادفهما مبنى أثري عباسي، تزين مدخله لوحة كتب عليها :المدرسة المستنصرية.

ترجلا ليتأملا المكان. مبنى فخم ذو طرازٍ إسلاميٍّ فريد، زخارفه تهمس بتاريخٍ عريق، لكنه مغلق لا يزوره إلا الطيور المهاجرة التي تحطّ على شرفاته لتشهد على حضارةٍ سادت ثم بادت.

غادرا المكان وهما يتحسران على مجدٍ ضاع بين الغبار.

اتجها بعدها إلى جامع أبي حنيفة النعمان في الأعظمية، حيث ارتفعت المآذن شامخةً كأنها تناجي السماء. في باحة الجامع تجلى أمامهما التاريخ بكل وقاره، أحجارٌ قديمة ونقوش تحكي عن زمنٍ كانت فيه بغداد قلب العالم وعقل الحضارة.

قال سعد وهو يتأمل الجدران:

-يا خسارة... الأحفاد اكتفوا بترديد أمجاد الأجداد دون أن يضيفوا سطرًا جديدًا في كتاب المجد.

جلسا بعد الجولة في مقهى شعبي على ضفاف دجلة، يتأملان الصيادين على قواربهم الخشبية المتهالكة. من مذياعٍ قديم صدح صوت ناظم الغزالي بأغنيته الشهيرة:

سمراءُ من قومِ عيسى،

من أباحَ لها قتلَ امرئٍ مسلمٍ

قاسى بها ولها...

المشهد كله كان لوحةً من حزنٍ شفيف: نهرٌ يجري، نغمةٌ حزينة، ووجوهٌ متعبة تبحث عن أملٍ مفقود. رواد المقهى في صمتٍ مهيب، كأن صوت الغزالي يأخذهم إلى زمنٍ آخر.

واصل الصديقان رحلتهما نحو شارع المتنبي، ذلك المعبر الأزلي لعشاق الكتب والرائحة القديمة للورق. لم يكن في بالهما مكتبة محددة، لكن القدر كان يُخبئ لهما مشهدًا آخر.

ظهرت فتاة عراقية تحمل كتبًا بين يديها، فتقدم إليها حمد قائلاً بلطف:

-المعذرة، نحن زوّار من السعودية، ولا نعرف أفضل المكتبات التي تبيع الكتب الحديثة؟

ابتسمت، وخلعت نظارتها الشمسية، فانعكست خضرة عينيها كأنها نهر دجلة آخر. قالت بلهجتها العراقية الجميلة:

-عيني، شنو تحبّون من كتب؟

لمح حمد في يدها ديوان بدر شاكر السياب، فرد بعفوية:
-نحب الشعر العراقي الحديث، ونبحث عن دواوينه.

رافقتهم إلى مكتبةٍ كبيرة، وبدأت تسرد أسماء الشعراء وتشرح لهم عن مدارس الشعر الحديثة، بينما حمد لا يسمع سوى نبرة صوتها، ولا يرى سوى عينيها. وحين غادرت بهدوء، تركت وراءها فراغًا غريبًا لم يملأه سوى الصمت.

بقي حمد يراقبها من بعيد، كأنه يبحث عن قصيدته الأولى بين خطواتها.

سعد، كان يراقب المشهد بابتسامة ساخرة، قال مازحًا:

-قلبك يعلق بخيال، مهوب بإنسانة.

ضحك حمد محاولًا إخفاء ارتباكه، لكنه أدرك في أعماقه أن ما شعر به لم يكن حبًّا حقيقيًّا، بل محاولة لملء فراغ عاطفي تركته الأيام. كان قلبه يتعلّق بكل ظلّ امرأة تمرّ أمامه، كمن يبحث عن طيفٍ لا يعرفه.

ومع حلول المساء، بدأ السكون البغدادي يهبط على المدينة. أضواء الشوارع تخفت، والناس يسرعون إلى بيوتهم، بينما الغيوم الداكنة تتجمع في الأفق. كان الهدوء الذي يسبق العاصفة... ولا أحد يدري من أين ستأتي.

13- بابل

في اليوم قبل الأخير، قرر الصديقان أن يختتما رحلتهما بزيارة الجنوب، حيث بقايا المجد البابلي القديم. أخبرهما موظف الاستقبال في الفندق أن الطريق إلى آثار بابل يمر عبر مدينة الحلة، فاستقلا سيارتهما مع أول خيوط الصباح، متجهين جنوبًا.

كان الطريق طويلاً وممتدًا كأنه لا نهاية له، تحفّه السهول البنية التي تعانق الأفق. جلس حمد صامتًا، وقد انعقدت في ذهنه أفكار مبعثرة لا يلتقط منها إلا صدى الذكريات. أما سعد فكان يحدّق في اللوحات الإرشادية على جانب الطريق، يحاول ألا يفقد التركيز وسط حرارة النهار المتصاعدة.

قطع حمد الصمت بعد مسافة طويلة وهو يتنهد قائلاً:

-بما إننا متجهين جنوب، أقترح نمر على النجف نتغدى هناك، فيها مطاعم مشويات يقدمونها بنغمة حزينة.

ابتسم سعد ابتسامة عارفة، فقد قرأ ما يجول في خاطر صديقه، وقال مازحًا:

-ايش رأيك تمر على النجف قبل بابل! يمكن تشوف فتاة الاستقبال وتكمل معلقتك اللي ما كتب منها بيت واحد"!

ضحك حمد بخجلٍ ممزوجٍ بالجدية وقال:

-الشعر ما يجتمع مع الخوف يا صاحبي، القصيدة مكتوبة في قلبي... بس ما نزلت بعد على الورق.

رد سعد وهو يقود السيارة، بنبرة ساخرة:

-بما إننا في العراق، لو حبيت نعرض قصيدتك على الفرق اللي تردّح، يمكن يصير لها جمهور واسع!

انفجرا ضاحكين حتى انطلقت السيارة بهما وسط الطريق كأنها تهتز مع ضحكاتهما.

بعد ساعات، بدأت ملامح آثار بابل تلوح في الأفق، وأول ما استوقفهما بوابة عشتار المهيبة. ضخمة ومزخرفة ببلاطٍ أزرق سماوي عليه نقوش الأسود والثيران، لكنها بدت كأنها تنهض من غفوتها القديمة لتستقبل من يجرؤ على زيارتها.

الزوار قليلون، والمكان موحش، تغطيه طبقات الغبار والإهمال، ومع ذلك كان فيه مهابة تشي بعظمةٍ ما زالت تقاوم الفناء.

تقدما بين الأعمدة الحجرية، يقرآن الصمت كأنه كتابٌ مفتوح على فصول التاريخ. دخلا في ممرٍّ ضيق يشبه المتاهة التي بناها البابليون لخداع الأعداء، وما لبثا أن تاها فعلًا بين الجدران المتآكلة، حتى كاد العرق يغسل وجهيهما من شدة الحرّ.

قال سعد وهو يمسح جبينه من العرق:

-يبدو أن البابليين نجحوا في خطتهم حتى بعد آلاف السنين !

ضحك حمد رغم الإرهاق وقال:

-لو خرجنا سالمين، سنكتب عنها قصيدة اسمها الضياع في بابل!

استطاعا أخيرًا الخروج من المتاهة نحو الساحة الواسعة، فشاهدا المسرح الإغريقي القديم الذي يثبت أن اليونانيين مرّوا من هنا وتركوا بصمتهم كعلامة على سطوتهم الثقافية.

تجولا في المكان صامتين؛ لا أحد يشرح التاريخ، فالحجارة كانت تتحدث بنفسها، وكل حجرٍ يحمل وجع قرونٍ من الصعود والانهيار.

وفي طريق العودة إلى بغداد، مرّا برتلٍ من الدبابات العراقية يتجه جنوبًا، ترفرف فوقه الأعلام العراقية، فعمّ الصمت السيارة من جديد. كان المشهد ثقيلًا، يذكّرهما

بأن هذه الأرض التي أنجبت الحضارات، ما زالت تلد الحروب أيضًا.

تنهد حمد وقال وهو يسترخي في المقعد:

-شفنا كل شيء في العراق... التاريخ، الحرب، الحب، والضياع. أظن حان الوقت نغيّر الاتجاه، نروح للشمال. الطبيعة هناك أجمل، والناس أهدأ.

ظل سعد مركزًا على الطريق المتهالك، ثم التفت إليه بابتسامة تحمل شيئًا من المكر وقال:

-متفق معك، خصوصًا إنهم يقولون بنات الشمال أجمل... يمكن هناك تلاقي ملهمة جديدة لشعرك المتدفق"!

ضحكا معًا، بينما كانت السيارة تمضي في طريق العودة تحت شمسٍ مائلة إلى الغروب، كأنها تشهد على نهاية فصلٍ من فصول مغامرتهما العراقية.

14- بغداد

الليلة الأخيرة لم تكن كغيرها من الليالي؛ كان في أجوائها شيء غامض، كأن المدينة تحبس أنفاسها استعدادًا لشيء جلل.

جلسا على طاولة في مطعم الفندق الفخم، تتلألأ أضواؤه فوق الصحون اللامعة، فيما تختلط أصوات المراسلين والصحفيين بلغات شتى، تدور بينهم كلمات تحمل نذر العاصفة. كان اسم صدام حسين يتردد في كل زاوية من المكان، يتقاذفه الصحفيون كما تتقاذف الأمواج حطام السفن. بدا وكأن الاسم نفسه أصبح هالةً تجذب الأعين والميكروفونات، فبدأ صدام حسين (لا يصغي إلى صوت العقلاء، يطرب لجنون العظمة وضجيج الشعارات).

قطع حمد شرود أفكاره والتفت إلى صديقه، الذي كان منهمكًا في تناول طبق السمك المسكوف بشهية، وسأله بصوت خافت:

-من تظن سيكون المنتصر في هذه الحرب؟

رفع سعد رأسه ببطء، وبلع ما تبقى من السمكة، ثم قال بصوت خفيض كأنه يخشى أن تتسرب كلماته إلى الجدران:

-لا يوجد منتصر في الحروب يا حمد... المنتصرون الحقيقيون هم الذين لا يخوضونها أصلًا. في النهاية، الشعوب هي الخاسر الأكبر، تدفع ثمن قرارات حكامها الذين يشعلون الحروب ليغطوا عجزهم عن بناء أوطانهم. الحرب الحقيقية ليست ضد البشر، بل ضد الجهل، وضد المرض، وضد الانغلاق الفكري.

صمت حمد، وشعر أن كلمات سعد خرجت من أعماق قلبه، كأنها خلاصة تجاربه وآلامه. لم يشأ أن يعلق أكثر، فالمكان يعج بآذان خفية وعيون تراقب كل همسة، فآثر الصمت واكتفى بنظرة فهم بينهما. غادرا المطعم نحو غرفتهما استعدادًا للراحة، علّ النوم يخفف من وطأة القلق الذي يخيّم على بغداد تلك الليلة.

وقف سعد عند النافذة يطل على نهر دجلة الذي بدا ساكنًا على غير عادته، تعكس مياهه أضواء الدوريات الأمنية التي تجوب ضفافه في حركة لا تهدأ. الشوارع خالية إلا من صدى الخطوات المجهولة. التفت نحو حمد الذي كان يجهّز حقيبته وسأله:

-إلى أي مدن الشمال تفضل أن نتجه غدًا؟

أجابه حمد دون أن يرفع رأسه:

-الموصل تشبه بغداد، وكركوك مدينة مصانع ودخان... أما أربيل، فهي أقرب إلى الجبال والطبيعة، أظنها أهدأ وأنقى.

ضحك سعد وقال ممازحًا:

-لكن بنات الموصل أجمل من أربيل!

ابتسم حمد وهو يلتقط معطفه:

-الجمال مفهوم نسبي يا سعد، لا يوجد جمال مطلق إلا في حالات نادرة.

رد سعد بخبث:

-مثل جمال فتاة الاستقبال في فندق النجف؟

توقف حمد للحظة، وبدت على وجهه ملامح ارتباك خفيف، ثم قال بصوت خافت:

-كلما حاولت نسيانها، ظهرت لي في أحلامي. الأماني مزاجها عجيب، يا صديقي. لو قُدّر لي أن أقترب منها حقًا، لأدركت أن الجمال الذي نراه من بعيد يخفي وراءه جوانب بشرية، لا تقل هشاشةً عنّا جميعًا. لكنني أكتفي بتخيل صورتها التي أرغبها... خيال جميل لا يجرح أحدًا.

ضحك سعد قائلاً:

-طالما أنها مجرد خيالات، فلن أقتحم عالمك، كانت مجرد مداعبة لا أكثر.

تهيأ للنوم، وكل واحد منهما يحاول مطاردة أطياف أحلامه بعيدًا عن أصوات الحرب القادمة. وبعد دقائق

معدودة، عمّ الغرفة صمت ثقيل لم يقطعه سوى صوت الشخير الذي صار كأنشودة نعاس أنهكها الخوف والترقب.

لكن السكون لم يدم طويلًا.

ففي منتصف الليل، دوّى انفجار هائل هزّ أرجاء الفندق، ارتجفت الجدران وسقطت النوافذ وتناثر الزجاج في كل اتجاه. استفاقا مذعورين لا يدركان ما يحدث، وصفارات الإنذار تمزق سكون الليل.

انقطعت الكهرباء، وغرقت الغرفة في ظلام دامس لا يُرى فيه إلا ومضات النار المنعكسة من الخارج.

كان المشي حافيًا على الأرض المليئة بالزجاج المكسور مغامرة خطيرة، فبحث سعد عن حذائه وسط الفوضى حتى وجده، فنفضه من بقايا الزجاج وساعد حمد على النهوض. فتحا الباب بهدوء، واتجها نحو سلم الطوارئ الحديدي بين صرخات النزلاء وصوت أقدامهم المتسارعة.

في الخارج، اجتمع الصحفيون الأجانب في حديقة الفندق، بعضهم يهرع لتصوير ما جرى، وآخرون يهمسون بخوف وترقب. كانت ألسنة اللهب ترتفع من مبنى قريب، تضيء سماء بغداد بلون الدم، وحين سأل أحدهم عن الموقع، جاء الجواب كالصاعقة:

-إنه مبنى الإذاعة العراقية.

عمّ الصمت، حتى الهواء بدا أثقل من أن يُتنفس. مرّت أمامهم سيدة أجنبية تنزف من قدميها، تحاول تضميد جراحها بقطعة قماش ممزقة، بينما عمال الفندق يسحبون ثلاثة أجساد مغطاة بالأغطية البيضاء. مشهد جعل القشعريرة تسري في الأجساد، فالدم كان لا يزال دافئًا على الأرض.

جلسا على مقعد حجري في الحديقة، وجوههم شاحبة، وعيونهم تائهة بين الدخان والدمار. لم يتحدثا، فالكلمات فقدت معناها. أدركا حينها أنهما نجيا من كارثة حقيقية، وأن الحياة لا تُقاس بعدد أنفاسنا، بل بعدد المرات التي ننجو فيها من الموت.

وفي تلك الليلة، لم يغمض لهما جفن، فقد اكتشفا أن أكثر اللحظات رعبًا، هي التي تُبقيك حيًّا كي تشهد كيف ينهار العالم من حولك ببطء.

15- بغداد

كانت بغداد تودّعهما بصمتٍ مهيب، كأنها تقول لهما: اذهبا... فإني مثخنة بالجراح. لم تشرق عليهما شمس اليوم الأخير إلا وهي باهتة، مائلة إلى الاصفرار، كأنها تخجل أن تضيء على ما تبقّى من رماد المدينة. ضوء النهار كشف عورة الليل، فأبان حجم الدمار الذي خلفه الانفجار، وظهرت واجهة الفندق مثخنة بالشظايا، زجاجها المحطم يشهد على ليلٍ لم يعرف الرحمة.

في حديقة الفندق، كان كل نزيل يلملم ما تبقى من ذاته قبل أمتعته، وجوههم شاحبة كأنها خرجت لتوّها من بين الأنقاض. جلس حمد مع مجموعة من النزلاء تحت ظل المبنى، صامتًا، عيناه تائهتان نحو الفراغ، فيما صعد سعد برفقة أحد عمال الفندق ليحضر حقائبهما من الغرفة في الطابق العاشر.

بدأ الصعود على الدرج، وكل خطوة كانت تبدو كأنها تسحب أنفاسه من صدره. عند الدور الرابع شعر سعد بالتعب، كأن الهواء أصبح أثقل من أن يُستنشق. توقّف ليلتقط أنفاسه، بينما العامل يسبقه بخفة، شاب اعتاد الارتقاء في وجه الكارثة. شدّ عزيمته وأكمل الصعود مترنحًا، يتماسك كيلا ينهار.

حين وصلا إلى الطابق العاشر، وجدا الممرات غارقة في الظلام إلا من خيوط ضوءٍ تتسلل من أبوابٍ مواربة. الهواء مفعم برائحة الغبار والدخان، والهدوء يقطعه صرير الأبواب المتأرجحة بفعل الرياح.

فتح سعد باب الغرفة، فتجمّد في مكانه. ما رآه جعل قلبه يخفق بعنف... السقف الجبسي يتدلى كأنه على وشك السقوط، والأسِرّة تحركت من أماكنها مسافة أمتار، والزجاج المكسور يلمع على الأرض كالنجوم الميتة.

همس لنفسه:

"كأن الله كتب لنا حياة جديدة من بين الركام".

اقترب من حقيبته، أخرج الكاميرا، والتقط صورًا للمشهد المروع. لم يكن توثيقًا فقط، بل محاولة ليثبت لنفسه أنه نجا، وأن ما يراه حقيقي لا كابوس.

حمل سعد والعامل الأمتعة ونزلا عبر مخرج الطوارئ الحديدي، بخطواتٍ متوجسة، كأن السلالم تخفي تحتها خوفًا جديدًا. وعندما وصلا إلى الأرض، كانت الشمس قد ارتفعت قليلًا، لكنها لم تمنح الدفء، بل زادت المشهد قسوة.

أسرع سعد بإنهاء إجراءات المغادرة، بينما حمد كان قد غفا على أحد المقاعد من شدة الإرهاق. بدا وجهه شاحبًا كأنه فقد لونه بين لهب الأمس وغبار اليوم.

بعد قليل، ركبا السيارة استعدادًا لمغادرة بغداد. كان حمد في حالةٍ نفسية متعبة، صامتًا، لا يتحدث إلا بعينيه اللتين تحملان ألف سؤال. أما سعد فكان يحاول أن يبدو متماسكًا، لكن القلق يسكنه. طوال الطريق لم يسمعا سوى صوت المحرك، حتى الطيور التي كانت تحلق فوق الطريق بدت وكأنها مهاجرة من الحزن ذاته.

فجأة، فتح حمد عينيه، وقال بصوتٍ واهن:

-أوقف السيارة... بسرعة.

توقّف سعد جانب الطريق، وقبل أن يسأله عمّا به، خرج حمد مسرعًا، وبعد خطوات قليلة انحنى وأخذ يتقيأ بعنف، كأن جسده يرفض ما مرّ به من أهوال. ظل في حالة استفراغٍ متكرر، ووجهه يزداد شحوبًا مع كل مرة.

وقف سعد عاجزًا، ينظر إليه بحزن، وخطر بباله أن يعود أدراجه نحو الحدود السعودية، لكن خوفه من أن يراه أهله في تلك الحالة الصحية الصعبة جعله يتراجع عن الفكرة.

عاد حمد إلى السيارة مرهقًا، بالكاد يستطيع رفع رأسه. ما إن جلس حتى غطّ في نومٍ عميق، كأنه غاب عن

الدنيا. غطّاه سعد بمعطفه، وظل يقود بهدوء، رغم أن صوت شخيره المتعب كان يملأ المقصورة. لم ينزعج منه، بل شعر بالشفقة عليه، فالشخير هذه المرة كان أنينًا مستترًا لا صوت نوم.

مرّت أربع ساعات من الصمت والقيادة المرهقة، حتى بدأ الأفق يفتح ذراعيه لمدينة الموصل .استيقظ حمد فجأة، وهو يشعر بجوعٍ حاد كأنه لم يذق طعامًا منذ أيام. اقتربا من مطعمٍ شعبيٍ على جانب الطريق، لم يكن مظهره مغريًا، لكن الخيارات أمامهما محدودة.

ما إن رأى صاحب المطعم سعد يساعد حمد على النزول، حتى نهض مسرعًا، مرحبًا بهما بلطفٍ بالغٍ، كأنما يعرفهما منذ زمن. كانت طريقته في الحديث، ودفء ملامحه، كافية لأن تذيب شيئًا من حزن بغداد في قلبيهما.

أجلسهما على طاولةٍ مريحة، وسارع إلى خفض صوت المغني الذي كان يترنم بمواويل حزينة، كأنه أدرك أن الزبونين أمامه خرجا للتو من مدينةٍ تنزف.

مضت ساعة كاملة بين الحديث الخفيف والوجبة الدافئة التي أعادت شيئًا من طمأنينتهما. في تلك اللحظة، سأل حمد صاحب المطعم عن الشيخ جاسم مطر من أهل الموصل، فأجابه الرجل بأنه سمع عنه في قرية العاشق القريبة من سد الموصل.

شكره حمد بحرارة على لطفه، وغادرا المطعم وقد هدأ اضطرابه، كأن شيئًا من السكينة تسلل إلى قلبه من خلال تلك الوجبة البسيطة.

وفي الطريق، اقترح سعد أن يتوجها إلى قرية العاشق للقاء الشيخ جاسم، لكن حمد رفض برفق قائلاً:

-لا، يا سعد... نكمل نحو أربيل، أريد أن أرى الجبال، ربما أجد هناك ما يشبه السلام.

ابتسم سعد وأدار المقود نحو الشمال، بينما ظلت الموصل خلفهما تتوارى شيئًا فشيئًا في الأفق، كأنها تلوّح لهما بوداعٍ مثقلٍ بالأسى. تحول الاتجاه من مدينة أربيل إلى مدينة دهوك.

16- دهوك

كان سعد يقود السيارة وهو يترنم بمواويل عراقية حزينة، صوته ينساب في الهواء كنسمة دافئة تخفف من وطأة التعب. أما حمد فكان غارقًا في تأمل الطبيعة التي بدت كلوحةٍ بديعة رسمتها يد الخالق؛ زرقة النهر تمتد أمامه كمرآة سماوية، وعلى ضفتيه بساطٌ أخضر من الحقول والنخيل، تتماوج أوراقها مع الريح كأنها تصفق للحياة بعد ليلٍ طويلٍ من الخوف.

قال حمد بصوتٍ يختلط فيه الشجن بالحنين، وعيناه معلقتان على الأفق:

-حدثنا والدي ذات مرة أن بلدتنا في القصيم أصابها الجفاف، حتى عمّت المجاعة بين الناس، فصاروا يسدّون رمقهم بما تنبته الأرض من أعشابٍ وحشائش.

كان أمير البلدة من تجار العقيلات، أولئك الذين يسافرون إلى العراق للتجارة ويمكثون فيها شهورًا ينعمون بخيراتها الوفيرة. وفي أحد مواسم القحط، جمع الأهالي وقال لهم بحماس:

-هيا نرحل إلى ضفاف دجلة، هناك النعيم والماء والخصب، هناك لن نعرف الجوع بعد اليوم.

ساد المكان صمتٌ مهيب، ثم علت أصوات الفرح أولاً، إذ تخيّل الناس حياةً لا ينهشها العطش ولا الجوع. لكن، وكما روى والدي، ظهرت فئة من أهل البلدة رفضت الفكرة بشدة، خشية أن يضيعوا دينهم في أرضٍ بعيدة لا يعرفونها.

كان صوتهم أقوى، لأنه صوت العقل والإيمان... فسقط المقترح، وبقينا نحن أبناء القصيم على أرضنا مهما اشتدّ بنا البلاء.

ضحك سعد وهو ينظر إليه مازحًا:

-لو وافقوا على الرحيل، لما كنت معي الآن... ربما كنت في الصفوف الأمامية تقاتل في الحرب!

ابتسم حمد بمرارة، وقال وهو يحدّق في الأفق:

-ربما... وربما كنت بين تلك الأرواح التي ضاعت بلا معنى. القدر وحده من يرسم خرائطنا يا سعد، لا رغباتنا.

وفي تلك اللحظة، مرّت سربٌ من الطيور المهاجرة فوق النهر، كانت تحلّق بانسجامٍ نحو الجنوب، تنقضّ أحيانًا على سطح الماء كأنها تودّعه. أوقف سعد السيارة قليلًا، ووقفا يتأملان المشهد المهيب؛ الطيور تتجمع على ضفاف النهر في مجموعاتٍ متقاربة، أكثرها من طيور القمري.

أخرج سعد كاميرته ليلتقط بعض الصور، لكن انعكاس ضوء الشمس على صفحة الماء منعه من الحصول على اللقطة التي حلم بها. قال مبتسمًا وهو يعيد الكاميرا إلى حقيبته:

-بعض المشاهد لا تُلتقط بعدسة، بل تُحفظ في القلب.

واصلت السيارة طريقها نحو الشمال، والنسيم القادم من دجلة يرافقهما كأنّه دليل سفرٍ أمين. بعد ساعاتٍ من المسير، بدأت ملامح مدينة دهوك تلوح في الأفق؛ مدينة حالمة تتكئ على الجبال، في أقصى شمال العراق. كانت أكثر هدوءًا من المدن التي مرّا بها، كأنها تعيش في عزلةٍ هادئة بعيدًا عن اضطرابات الجنوب.

توجها إلى فندقٍ صغير في وسط المدينة، لم يكن بمستوى فندق المنصور في بغداد، لكنه كان نظيفًا، وغرفه واسعة وتفي بالغرض.

وبعد أن دخلا الغرفة واستراحا قليلاً، قال سعد وهو يتفحص المكان:

-لماذا اخترت دهوك بالذات؟ أليست الموصل أجمل منها؟

ابتسم حمد وهو يفتح النافذة لتدخل نسمةٌ باردة من جبال الشمال، ثم قال بهدوء:

-سمعت كثيرًا عن جمال الطبيعة هنا، وعن تنوّع الجغرافيا بين الوديان والجبال. قالوا إن في زاخو جبالًا تنخفض فيها درجات الحرارة حتى في الصيف، وأردت أن أرى بعيني هذا الجمال الذي يتحدثون عنه.

-أم أنك تهرب من أهوال الحرب في بغداد ومدن الجنوب؟

تنهّد حمد طويلًا، وأجاب بصوتٍ مبحوح:

-لو قلت لك لا، لكنت أجافي الحقيقة. الذي عشناه في تلك الليلة الأخيرة في بغداد لا يُنسى يا سعد، لا يُنسى أبداً...

ساد الصمت للحظة، ولم يسمع إلا صوت مروحة السقف وهي تدور ببطء. الإرهاق بدا واضحًا على ملامحهما، فكان النوم المبكر هو الملاذ الوحيد بعد يومٍ طويلٍ من السفر والمشاعر المتشابكة.

تمدد حمد على السرير، وأغمض عينيه، كأنه يهرب من كل شيء. بينما ظل سعد يتأمل سقف الغرفة، يتساءل بصمت:

هل حقًا يمكن للإنسان أن يفرّ من الحرب؟ أم أن الحرب تسكنه أينما ذهب؟

وغفا الاثنان في النهاية، بين هدير الريح القادمة من الجبال، وصوت النهر البعيد الذي يهمس لهما:

"مرحبًا بكم في شمال السلام... فأنتم قادمون من الجنوب المتعب".

17- دهوك

في صباح اليوم التالي، استيقظا من نومٍ عميق على ضجيج الحياة المتدفقة من السوق الشعبي القابع أسفل الفندق. تسلّلت الأصوات إلى غرفتهما كأنها موسيقى ريفية تُعلن ميلاد يوم جديد، صياح الباعة، وقع الأقدام، وصرير العربات الخشبية التي تجرها الحمير على رصيف الشارع.

اقتربا من شرفة الغرفة، فوقع بصريهما على مشهد يأسر القلب: صفوف من المزارعين يعرضون منتجاتهم الزراعية الطازجة، يحملون في وجوههم ملامح الأرض التي يزرعونها. كانوا يرتدون الزيّ الكردي التقليدي: سروال فضفاض يلتفّ على الساقين وسترة ملونة تنبض بالحياة، وفوق رؤوسهم عمائم تكشف عن مقدمة الرأس، كأنها توقيع هويتهم المتوارثة منذ أجيال.

كان المشهد أخّاذًا، حتى أن حمد قال وهو يتنهّد بإعجاب:
-ما أجمل البساطة حين تلتقي بالكرامة، كأنهم يزرعون البهجة قبل أن يزرعوا الأرض.

نزلا إلى السوق بخطواتٍ مترددة تغلبها الحماسة. تبادلا الابتسامات مع الباعة الذين تحدثوا بلغةٍ بدت

غريبة عن سمعهما (اللغة الكردية) لكن الابتسامة كانت لغةً لا تحتاج ترجمة. كان في الأعين دفء الريف وصدق العيش.

شدّت انتباه حمد امرأة عجوز في آخر السوق، تجلس بجانب عربة صغيرة أمامها بطيختان فقط بقيتا من بضاعتها. كانت تنادي بصوتٍ مبحوح يحمل تعب السنين. اقترب منها حمد واشترى البطيختين دون تردد، فتهلّل وجهها كأنها ربحت الدنيا كلها. شكرتهم بلغةٍ لم يفهموها، لكن الفرحة في عينيها كانت أبلغ من أي كلمات.

حمل البطيخ إلى الغرفة وهو يضحك قائلاً:

-سأفتحها بنفسي، لا أريد مفاجآت.

شق البطيخة بسكين صغيرة، وإذا بلونها الأحمر القاني يفيض كدمعة فرح. تذوّق قطعة منها وأغمض عينيه قائلاً:

-سبحان الله، طعمها مختلف... كأنك تتذوق نكهة نهر دجلة.

ضحك سعد وهو يلتهم قطعة باردة قائلاً:

-يبدو أن الماء هنا يسقي الفاكهة بالحنين.

بعد لحظات من الانتعاش، تمدد سعد على سريره وقد داهمه النعاس، بينما جلس حمد قرب النافذة،

يتصفح خريطة العراق أمامه. كانت عيناه تتنقلان بين المدن والجبال والأنهار، يرسم بخياله طريق الرحلة القادمة. بدأ يدوّن الملاحظات على دفتر صغير، الأماكن التي تستحق الزيارة، والجبال التي تحيط بدهوك، والبحيرات التي تلمع كالعين الزرقاء وسط الخضرة. حذف من قائمته كل ما هو أثري أو مزدحم بالناس، واكتفى بوجهاتٍ تحتضن الطبيعة والهدوء، حيث يمكنه أن يسمع صوته الداخلي بعد صخب بغداد.

وقبل الظهر، انطلقا في سيارتهما نحو تلك الأماكن التي اختارها حمد بعناية. كانا متحمّسين ليومٍ خالٍ من صفّارات الإنذار ومن أخبار الحرب التي كانت تلاحقهما حتى في المنام.

تقدّما شمالًا، وعلى طول الطريق كانت أسراب طيور القطا تملأ السماء في مشهدٍ يبعث الطمأنينة. طارت الطيور في انسجامٍ عجيب، لا تعرف الحدود ولا الحروب، كأنها تقول للبشر:

"السلام ليس بعيدًا... أنتم فقط من ضيّعتم طريقه".

وقف سعد بسيارته على جانب الطريق وأخرج منظاره الصغير يراقب الطيور، بينما اكتفى حمد بالنظر نحو الأفق مبتسمًا، مستسلمًا لتلك السكينة النادرة التي لم يعرفها منذ زمن.

مضى اليوم الأول في دهوك سريعًا، دون أن يشعر بهما أحد. كانت المدينة هادئة رغم كل شيء، متحرّرة من قيود الحرب، يسكنها سلام خفي يجعل ليلها مختلفًا ليل بلا صفارات إنذار، بلا خوف، فقط أصوات الحياة وهي تهمس أن الغد ما زال ممكنًا.

18- جبل شاباني

بعد ثلاثة أيامٍ من التجوال بين الوديان والغابات والبحيرات الهادئة، قرّرا أن يختتما رحلتهما بزيارة جبل شاباني في مدينة زاخو، على مشارف الحدود العراقية التركية. كان الاسم وحده يثير في نفسيهما فضولًا لا يقاوم، كأن الجبل يخفي خلف صخوره أسرارًا من زمنٍ غابر.

تحرّكا بسيارتهما مع إشراقة الصباح، باتجاه الشمال، والآمال تحلّق في قلبيهما أن تكون هذه الرحلة امتدادًا للأيام الحالمة التي عاشاها في دهوك. الطريق كان ضيقًا ومتعرّجًا، تصطف على جانبيه الشاحنات الضخمة القادمة والمغادرة من العراق، محمّلة بالبضائع والغبار وصوت المحركات الثقيلة الذي يخترق السكون الجبلي.

وحين بدت قمم الجبل أمامهما، أوقفا السيارة وانشغلا بالتأمل؛ كان جبل شاباني يقف شامخًا كجدار يفصل الأرض عن السماء، يرتفع أكثر من 1300 متر، كأنه كتلة من الكبرياء الصامت. قال حمد وهو يتنفس بعمق:

-تخيّل كم مرّ من العصور على هذا الجبل، كم قصة دفنها في صمته!

ابتسم سعد قائلاً:

-واليوم نكتب قصتنا نحن على سفحه، فقط نرجو أن تكون جميلة.

بدأ الاثنان صعود المسار المخصص للمشي، مستمتعين بنسيمٍ بارد يحمل رائحة الأعشاب البرية. لكن المسار ما لبث أن اختفى تحت الحجارة الصغيرة المتناثرة، فغدت الأرض زلقة وخطرة. توقّفا يتبادلان نظرات القلق، فهما لم يجهزا نفسيهما لهذا النوع من المغامرات، لا أحذية مناسبة ولا أدوات تسلّق، فقط الحماسة والعفوية.

وفجأة، ومن خلف صخرةٍ ضخمة، ظهر رجلان ملثمان، يحمل كلٌ منهما سلاحًا رشاشًا موجهًا نحوهما. تجمّدا في مكانيهما كتمثالين، والدهشة تسبق الخوف إلى قلبيهما. كان الرجلان يتكلمان بلغةٍ غريبة لم يفهماها، لكن نظراتهما كانت أكثر فصاحة من الكلمات قسوة باردة، لا تعرف الشفقة.

رفع حمد يديه ببطء محاولًا أن يبدو هادئًا، وأخرج ما في جيبه من نقود قائلاً بصوتٍ مرتجف:

-خذوا كل ما نملك... فقط لا تؤذونا.

لكن تصرفه ذاك أشعل غضبهم، وكأنهم ظنّوا أنه يسخر منهم. دوّى صوت الرصاص في الهواء، ارتجفت الأرض تحت أقدامهم، وانكمش الخوف في صدريهما حتى صار ككرةٍ من نارٍ تلسع القلوب.

في لحظة خاطفة، وضِعت الأصفاد في أيديهما، وغطّيت رؤوسهما بأكياسٍ سوداء كثيفة لا يظهر منها سوى بقعة صغيرة من الضوء نحو الأسفل. أصبح العالم بالنسبة لهما مجرد ظلامٍ خانق ورائحة ترابٍ ممزوجة بالبارود.

اقتيدا بخطواتٍ متعثرة نحو سيارةٍ كانت بانتظارهما. دفعهما أحد الخاطفين بعنف إلى داخل حوض شاحنة صغيرة، ثم انطلقت السيارة تصعد المرتفعات بسرعةٍ مجنونة. كانا يتقلبان كأنهما دميتان في يد القدر، ترتطم أجسادهما بجوانب الحديد البارد، وكل مطبّ يرميهما في اتجاهٍ مختلف، حتى لم يعودا يميزان الأعلى من الأسفل.

مرّ الوقت ثقيلاً بلا ملامح، ربما ساعة، وربما أكثر، لكن الخوف جعل الدقائق دهورًا. لم يسمعا إلا أصواتًا متقطعة بلغتهم الغريبة، وضحكاتٍ توحي بأنهم أنجزوا صفقة ثمينة بخطفهما.

كانت الأفكار تتزاحم في رأس حمد :هل هذه نهايتنا؟ هل سنصبح خبرًا غامضًا في صحيفة لا يقرؤها أحد؟ أما سعد، فكان يشعر بأن الهواء يضيق حول وجهه المختنق داخل الكيس الأسود، يلهث بشدة حتى امتلأ صدره بحرارة الغبار.

حين عطس دون قصد بسبب ذرات التراب، تلقّى لطمة قوية على خده من أحد الخاطفين، حتى دوّى

الطنين في أذنه كصفارة مؤلمة. كاد يبكي، لكن خوفه من لطمةٍ ثانية حبسه بين صمتٍ وقهرٍ مكتوم.

شعر حمد بحركة سعد واضطرابه، فحاول الاقتراب منه داخل ضيق الحوض ليهمس له بكلمة طمأنينة، ولو أنه هو نفسه فقد الإحساس بالأمان منذ لحظة أسرهما. مدّ يده المصفّدة بصعوبة حتى لامست كتفه وقال بصوتٍ مبحوح:

-اصبر يا سعد... ما ينتهي الليل إلا بعد طلوع الفجر.

لكن في داخله كان يعلم أن هذا الفجر بعيد، وأن رحلتهما الحلمية تحوّلت إلى كابوسٍ لم يستيقظا منه بعد.

19- زاخو

لم يتحدث معهم أحد من الخاطفين. بقوا على حالهم في العراء، مكبّلين بالأصفاد، ورؤوسهم مغطّاة بأكياسٍ سوداء تخنق الأنفاس. كان الهواء البارد يلسع وجوههم، والغبار يملأ أنوفهم، وأي حركة بسيطة منهم كانت تقابل بصفعةٍ قاسية تُسقط الكرامة قبل الألم.

كانت الصرخات تختنق في الحناجر، والوجع لا يجد طريقًا للخروج، حتى المجرمون لا يُعاملون بمثل هذه الوحشية.

كانا قريبين من بعضهما جسديًا، لكن عقولهم سافرت بعيدًا كلٌّ في اتجاهه، يحمل همومه وخوفه على طريقٍ معتم لا يعرف نهايته.

جلس حمد غارقًا في بحرٍ من الذكريات، خذلته دموعه حين تخيّل وقع خبر موته على أسرته في عرعر. تذكّر والده العجوز الذي طالما قال له:

“أريد أن أراك سندي بعد الله”.

تخيّل أمه التي كانت تجهّز له العروس قبل سفره، حلمها أن ترى أحفادًا يحملون ملامح ابنها الوحيد، ثم أخواته اللاتي كنّ يعتبرنه أبًا ثانيًا لهن.

تذكر نورة، الصغيرة التي لا تكتمل ضحكتها إلا بوجوده، فقد رآها بعيني خياله تبكي بصمتٍ وهي تردد: "أخي لا يمكن أن يرحل، لابد أن يعود".

كل هذه الصور كانت تتوالى أمامه كأنها شريط سينمائي موجع، يلدغ قلبه في كل مشهد.

أما سعد، فكان ذهنه منشغلًا برسم سيناريوهات النجاة. تخيّل أنهم سيكتشفون قريبًا أنهم قبضوا على الشخصين الخطأ، وأن رئيسهم سيأتي ليقدّم الاعتذار ببرودٍ، وربما يمنحهم تعويضًا، كما يحدث في الأفلام. لكنّ ضحكات الخاطفين الساخرة التي كانت تتردّد في المكان، أعادته إلى الواقع القاسي، فعدل عن تفاؤله المفرط، وبدأ يرسم في خياله سيناريوهات أكثر سوداوية، أكثر واقعية، وأكثر ألمًا.

كانت فكرة تقبّل الواقع أمرًا مستحيلًا. كيف يتقبّلان أن يُحرما من أبسط الحقوق؟

أن يُمنعا حتى من الكلام، من قول أسمائهما أو الدفاع عن نفسيهما؟

لقد كانت الحرية بالنسبة لهما قيمةً يتغنّى بها الناس في المجالس، لكنهما الآن يكتشفان معناها الحقيقي: أن تُسلب منك القدرة على أن تكون إنسانًا.

في تلك العزلة القاسية، تذكّرا معنى الصبر كما قرآه في كتب الأدب، وأقوال الحكماء، والقصائد التي كانت تمجّد التحمل والثبات. لكنهما أدركا الآن أن الصبر ليس كلماتٍ تُتلى، بل وجع يُعاش .أن تقرأ عن الصبر شيء، وأن تتذوقه حتى العظم شيء آخر.

مضت ثلاثة أيام وهما على حالهما، لا يعرفان الليل من النهار، والوقت يمضي كأنه عقوبة بحد ذاته. لم يتحدث معهم أحد، ولم يسمعا سوى وقع الأقدام القاسية، وصوت أوعيةٍ معدنية تُلقى إليهما فيها القليل من الطعام والماء ما يكفي فقط لإبقائهما على قيد الحياة.

ظنّا أن هذه المعاملة جزءٌ من خطةٍ نفسية لكسر إرادتهما، لجعلهما يعترفان بما لم يقترفاه. لكن الاعتراف بماذا؟ لم يتجاوزا قانونًا، ولم يفعلا ما يستحق هذا الجحيم.

كل ما فعلاه أنهما بحثا عن الجمال في بلدٍ أرهقته الحروب، فوجداهما أنفسهما أسرى في أرضٍ لا تعرف سوى لغة السلاح.

وبينما كانا يحاولان تحليل كلماتٍ متقطعة يسمعانها من حديث الخاطفين، تكرر اسمٌ بدا غريبًا على سمعهما: "أوجلان... أوجلان"...

ظنّا أول الأمر أنه اسم رئيس العصابة، وأنه سيأتي ليتفاوض معهما أو يقرر مصيرهما، لكن الأيام مضت، ولم يظهر أحد.

ومع كل فجرٍ جديد، كانا يكتشفان أن الأسوأ لم يأتِ بعد، وأن الصمت الطويل قد يكون أشد قسوة من الرصاص.

20- زافو

عندما تتشابه الأيام، ويتساوى الليل والنهار في ملامحهما، تصبح الحياة رماديةَ اللون، بلا معنى، بلا زمن. ذلك ما شعرا به؛ فقدان الإحساس بالوقت، فلم يعودا يميّزان بين فجرٍ يطلع وليلٍ ينقضي. حتى الذاكرة بدأت تتآكل كجدارٍ ينهشه الصمت.

كانت أصوات الخاطفين وضحكاتهم بلُغةٍ غريبة أشبه بصدى بعيد لا يُفهم منه شيء، لكنها كانت كافية لإشعال الخوف في الصدر. في كل مرة يسمعان فيها نغمة ضحكٍ، كانا يقرآن فيها بشارة شؤم، وإعلانًا غير منطوق بأن الفرج بعيد، بعيد جدًا.

الجو بدأ يتغير، والبرودة تزحف في الليل ببطءٍ قاتل. كانوا يتعطفون عليهما أحيانًا بإشعال نارٍ صغيرة قرب الكهف.
يتقابل اللهب المتراقص مع وجهيهما في مشهدٍ يشبه لحظة حياةٍ قصيرة داخل موتٍ طويل. كانا ينامان حين يغمرهما الدفء، لكن الرياح كانت تخونهم في منتصف الليل، فتطفئ النار وتترك أجسادهما ترتجف في صمتٍ موجع. الهواء يلسع العظام، والجوع ينخر في الجسد، والرجاء يكاد ينطفئ كما انطفأت النار.

وفي أحد الأيام، سمعا وقع أقدامٍ قادمة نحوهما. كانت الخطوات مختلفة الإيقاع، أثقل من المعتاد. توقف الصوت قريبًا، ثم صدر أمرٌ بلغةٍ غليظة، تلاه إحساسٌ بيدٍ تلامس القيود الحديدية.

سمعا صرير الأصفاد وهي تُفتح، تلاه نزع الأكياس السوداء التي كانت تخنق وجهيهما. ما إن لامس الضوء أعينهما حتى أغمضاها من شدته. كان النور يؤلم أكثر من الظلام، لأنهما لم يرياه منذ أيامٍ طويلة.

وبينما تتأقلم أبصارهما مع المشهد الجديد، اكتشفا أنهما في كهفٍ مطلٍّ على سلسلةٍ من الجبال والأودية . الهواء نقيّ، لكنه قاسٍ، يصفع الوجوه بلا رحمة. كل الرجال المحيطين بهما ملثمين، يحملون أسلحة رشّاشة، إلا رجلًا واحدًا، ضخم الجسد، عريض الكتفين، يغطي وجهه شارب كثّ، عيناه ثاقبتان لا تعرفان اللين. بدا واضحًا أنه القائد.

أمر بإحضار طعامٍ مختلف عن الفتات الذي اعتادوه، سمح لهما بالحركة المحدودة، ثم حذّرهما بلهجةٍ صارمة:

-أي محاولة للهروب... معناها نهاية حياتكم. أنتم لستم في الأراضي العراقية الآن، فلا تحاولوا البحث عن طريقٍ للنجاة.

أصابتهما الجملة الأخيرة بالذهول أكثر من الخوف. إن لم يكونا في العراق، فأين هما؟

لكن الجوع غلب الحيرة، فانقضّا على الطعام بنهمٍ كأنهما لم يأكلا منذ دهر. كانت اللقمة الأولى طوق نجاة، والثانية وعدًا بالحياة، أما الثالثة فدمعة امتنانٍ حُبست في الحلق.

بعد أن شبعا، قُدّم لهما الشاي الساخن بنكهةٍ غريبة، ثم عُرضت عليهما السجائر. اعتذرا برفقٍ بأنهما لا يدخنان.

لم يعلّق الرجل، لكنه ظلّ يراقبهما من بعيد، بعينٍ حذرةٍ ووجهٍ خالٍ من التعبير، حتى بدأ يرى فيهما علامات استعادة الوعي. عندها اقترب وجلس بقربهما على الأرض الباردة.

تكلم بصوتٍ هادئٍ كمن يخفي وراء سكونه عاصفة:

-أنتم تعملون لحساب أي حزب كردستاني؟

كان السؤال قاسيًا كالسوط، لكنه بالنسبة لهما كان نعمة بعد أيامٍ من الصمت.

ابتلع سعد ريقه، ثم أجاب بصوتٍ مبحوح من أثر البرد:

-نحن إخوتكم، من السعودية... جئنا نرى جمال كردستان كما سمعنا عنه.

رفع الرجل حاجبيه بدهشةٍ امتزجت بالريبة، ثم قال بانفعالٍ غاضب وهو يضرب الأرض بقبضة يده:

-منذ أن عرفت الدنيا، لم أرَ سعوديًا يزور مناطقنا!

كيف يجيئان في زمن الحرب؟ هذه الحكاية لا تُصدق حتى في الأحلام.

أنتما جواسيس، وسنعرف الحقيقة بطريقتنا. هل تريان ذلك الوادي أسفل الجبل؟ فيه مقبرة الجواسيس... إن رغبتم، أرسلكما إليها الليلة"!

أنهى كلامه، واستدار عنهم ملقيًا ظهره، تاركًا صدى كلماته يتردد في الفراغ كجرس إنذارٍ في عقولهم. نظر حمد إلى سعد نظرة المستغيث، كأنه يقول بعينيه: (تصرّف... افعل شيئًا... نحن على حافة الموت.)

لكن سعد لم يجد ما يقوله، ولا ما يفعله. في تلك اللحظة أدرك الاثنان أن الخطر لم يعد مجرد خوفٍ، بل أصبح حقيقةً تمشي أمامهما على قدمين.

21- زاخو

في اليوم التالي، ظلّ الرجل الضخم ذو الشارب الكثّ بعيدًا عنهما، كأنه قرر أن يعاقبهما بصمته الموحش. لم يوجّه إليهما نظرة، ولا كلمة، فقط كان يختلس الضحك بصوتٍ عالٍ مع الحراس الآخرين، يتبادلون النكات والدخان، وكأنهم يحتفلون بعذاب الآخرين. كانت ضحكاته الفجّة تلسع روحيهما، تشعرهما بالمهانة، كأنها سخرية من إنسانيتهما المهدورة في هذا المكان الذي لا يعرف ضوء النهار.

مرت الأيام ثقيلة متشابهة، لا جديد فيها إلا وجوه الحراس القاسية، وهدير الريح في فم الكهف، وصدى خطواتٍ تذكّرهم بأنهم ما زالوا أحياءً فقط لأن الموت لم يجد وقته بعد.

مُنعوا من الكلام، من التمدّد خارج حدودٍ رسمها الحراس كزنزانةٍ خفية. كلما تحرك أحدهما بضع خطوات، كانت فوهات البنادق تتجه نحوه، فيعود إلى مكانه بصمت، كطفلٍ نهرته أمه في غير ذنب.

كان الخريف قد حلّ بثقله، يحمل برودته ورائحته التي تذكّر بالرحيل، بينما هما لا يملكان إلا الانتظار. الزمن فقد معناه، والنهار والليل تشابها حتى غدت الأيام

كقطرات ماء تتساقط على صخرةٍ واحدة بلا أثر. الكآبة استوطنت وجهيهما، حتى فقدا الرغبة في الحديث. لم يعد بينهما ما يُقال، حتى اللوم والشكوى ذابا في صمتٍ طويل.

كانت نظراتهما تتقاطع أحيانًا، لكن كلٌّ منهما كان يرى في عيني الآخر نسخةً من وجعه، فيصمت أكثر.

وفي صباحٍ بدا كغيره، حدث ما كسر الرتابة الثقيلة. دخلت فتاةٌ الكهف، لا تشبه الوجوه التي ألفاها من قبل. كانت عيناها زرقاوين كسماءٍ ربيعية بعد مطر، ووجهها يحمل طلاقةً تُنبت الأمل في أرضٍ يابسة.

حين وقفت أمامهما، تراجعا مذعورين حتى التصقا بجدار الكهف، يظنان أن ما يرونه ليس بشرًا، بل خيالٌ من أثر الجوع والتعب.

لكنها ما لبثت أن قالت بصوتٍ دافئٍ، لهجةٌ عراقيةٌ رقيقة كالماء حين يمر على صخرٍ أملس:

-ناقصكم شي؟

كانت كلمتان فقط، لكنهما اخترقتا جدار الخوف واليأس. تردّد صدى صوتها في الكهف كأنها دعوة حياةٍ جديدة. نظر إليها الاثنان طويلًا، لا يعرفان أيتحدثان أم يبكيان.

في تلك اللحظة شعر كلٌّ منهما أن قلبه الذي خمد عاد ينبض، وأنه ما زال في هذا العالم من يستطيع أن يتحدث إليهما دون تهديد.

ابتسمت ابتسامة صغيرة، ثم أمرت بإحضار طعامٍ أفضل وملابس شتوية جديدة.

كانت تلك التفاصيل الصغيرة بالنسبة لهما أكثر من مجرد كرم، كانت إشارة رحمة في عالمٍ قاسٍ. في عينيها الزرقاوين كان دفءٌ غامض، جعل الأمل يتسلَّل خلسةً إلى نفسيهما، كأنهما وجدا أخيرًا إنسانة وسط كل هذا الوحشية.

في اليوم التالي، غادر معظم الحراس الكهف في مهمةٍ خارجية، وبقيت هي مع ثلاثةٍ منهم في الأطراف. كانت السماء تمطر مطراً خفيفًا، ونسائم باردة تتسلل من فتحة الكهف، تنشر رائحة الطين والرطوبة.

اقتربت بخطواتٍ واثقة وجلست معهم قرب النار التي كانوا يتدفآن بها، شعلةٌ صغيرة تقاوم صقيع المساء. كانت تبتسم، وتراقبهما بعينين تلمعان تحت وهج النار، نظرة امرأة تعرف أكثر مما تقول.

تجرّأ سعد وسألها بصوتٍ مبحوح:

-من أنتِ؟

عدّلت جلستها برشاقة، ورفعت خصلةً من شعرها الأسود انزلقت من تحت القبعة العسكرية، وقالت بهدوءٍ حذر:

-قل لي أولاً... من أنتما؟

سرت في المكان لحظة صمتٍ طويلة، كأن الزمن توقف ليستمع.

أدركا حينها أن تلك الفتاة ليست مثل غيرها، وأنها جاءت لا لتستجوب، بل لتفهم. بدأ بسرد قصتهما من البداية، بكل ما فيها من خوفٍ وضياع، وهي تنصت بنصف اهتمام، تنفث دخان سيجارتها إلى الأعلى كأنها تحاول أن تُخفي تأثرها خلف ستارٍ رمادي.

لكنّ حمد، وقد بلغ اليأس ذروته، لم يحتمل برودها.

قال بعصبيةٍ وانفعالٍ حاد:

-كلكم تلعبون بأعصابنا! كل ما نقوله لا يُصدّق! ومهما شرحنا نظل مذنبين في نظركم! احملي مسدسكِ، وأطلقي النار علينا! الموت أرحم من هذا العذاب البطيء!

سادت لحظة صمتٍ ثقيلة بعد كلماته.

الفتاة نظرت إليه بدهشةٍ لم تخلُ من الشفقة، بينما انسحب هو إلى زاوية الكهف، جالسًا في الظلام، يدفن وجهه بين كفيه.

كان يغلي من الداخل، يحترق من الانتظار، من الإهانة، من الغموض الذي يخنقه كالدخان.

أما سعد، فبقي أكثر هدوء، نظر إليها بعينين مرهقتين وقال بصوتٍ خافتٍ يحمل رجاء:

-اعذري صديقي... لقد فقد الأمل. نحن لم نرتكب شيئًا، لكنكم لا تسمعون إلا ما تريدون. إن كان لا بد من ثمنٍ لنخرج من هنا، فليكن المال. خذوا ما تشاؤون، فقط أطلقوا سراحنا.

لمعت عيناها الزرقاوان باهتمام، اقتربت قليلًا وقالت:
-الفدية؟ فكرة ليست بعيدة... سأحمل اقتراحك للقيادة، ما زال التحقيق جاريًا، ولم يُثبت ضدكما شيء. سأوصي بقبولها.

ثم نهضت ببطء، ألقت نظرة أخيرة على حمد المنكمش في زاويته، وغادرت إلى أسفل الكهف، تاركة وراءها رائحة عطرٍ خفيفة ووميض أملٍ خافت.

التفت سعد إلى صديقه وربت على كتفه برفق، وقال بصوتٍ متهدّج:

-الأمل بالله لا يموت... سيأتي الفرج يا حمد، وإن طال الطريق.

22- عرعر - حفر الباطن

مرّت أربعة شهور على اختفائهما، قصتهما حديث الناس في مدينتي عرعر وحفر الباطن. لم يبقَ مجلس إلا وذكر فيه اسماهما، ولا بيت إلا وترددت فيه التكهنات. كانت الشائعات تتناسل كل يوم كأنها كائنات من دخان، لا تُمسك لكنها تُخيف. منهم من قال إنهما انضما إلى المجاهدين في أفغانستان، ومنهم من زعم أنهما غادرا طوعًا ولن يعودا. لكن الحقيقة كانت أبعد من ذلك بكثير... وأشد وجعًا.

كلا الأسرتين لم تستسلما لتلك الأحاديث، بل بدأتا رحلة البحث المضنية. سافرا إلى الرياض، طرقا أبواب الجهات الرسمية، بحثا في المستشفيات والسفارات، حتى قادهم أحد الأصدقاء، الذي كان ينوي السفر معهما ثم عدل في اللحظة الأخيرة، إلى خيطٍ رفيعٍ من الأمل:

" هما في العراق".

كانت تلك الجملة القصيرة كصاعقةٍ على القلوب، فيها رجاء وفيها خوف، فيها حياة جديدة للبحث، لكن أيضًا بداية قلقٍ لا نهاية له.

أسرة سعد كانت الأكثر تماسكًا، تحبس دموعها في صدرها، تكتفي بالصمت والدعاء، بينما عيناها تنطقان بالحزن الذي لم يجد له مخرجًا.

أما أم حمد، فقد انهارت تمامًا حين سمعت أن ابنها الوحيد في العراق. كانت تتهيأ لزفافه، تجهز له بيت الزوجية وتخيط له الثياب بيدها، تنتظر يومًا تراه فيه عريسًا لا أسيرًا. لكن الفرح تحوّل في لحظة إلى مأتم، والأمل إلى وجعٍ مقيمٍ في صدرها لا يُغادر.

تولى أبو حمد متابعة القضية بنفسه. رجلٌ بسيط لكن قلبه مفعم بالعزم. بدأ يجري اتصالاته هنا وهناك، استعان بأصدقائه القدامى في العراق، وكلّهم حاولوا المساعدة بصدقٍ وألم.

تم البحث في كل الجهات الأمنية والاستخباراتية، وكان الرد الرسمي الوحيد الذي تلقّاه أن الرجلين قُتلا في تفجير مبنى الإذاعة ببغداد، حيث كانا يقيمان في فندق المنصور.

لكن حين فُتّش الركام، لم يُعثر على أي أثرٍ لهما. لا رفات، لا هوية، لا أثر سوى فراغٍ يوجع أكثر من الموت نفسه.

بدأت تخرج رواياتٌ جديدة:

قيل إنهما أُسرا في إيران كضحايا حرب، ثم نُقلا إلى أماكن مجهولة. لكن حتى سجلات المنظمات الدولية خلت من اسميهما، وكأن الأرض ابتلعتهما.

تعددت الحكايات وتبدّدت الخيوط، لكن الحقيقة ظلّت غائبة، تختبئ خلف جبال زاخو، حيث لا يسمع أحدٌ سوى صدى الصمت.

بدأ اليأس يتسلل إلى أبي حمد شيئًا فشيئًا. كان الناس ينظرون إليه على أنه الرجل الذي سيحلّ اللغز، الذي سيفكّ شفرة الاختفاء، لكنه كان يعرف في أعماقه أنه يواجه جبلاً من الغموض وحده. تحوّل من رجلٍ نشيطٍ يملأ السوق حضورًا، إلى ظلٍ باهتٍ يجرّ خطاه بتعب.

أغلق متجره الذي كان يضج بالحياة، وترك مفاتيحه على الطاولة، وكأنه يغلق قلبه لا بابه فقط. صار يقضي أيامه في التجوّل بلا هدف، يجلس أمام المقهى الصغير في شارع السوق، يراقب المارة بعيونٍ غائرة، يبحث في وجوه الناس عن ملامح ابنه الغائب.

كل مساء كان يعود إلى بيته مثقلًا بالصمت، وفي الليل يطارد النوم من عينيه، تقتحمه الصور والأسئلة والكوابيس.

حتى الراديو، الذي كان رفيقه الدائم، صار نذير شؤمٍ له. كلما سمع نشرةً عن الحرب أو الأسرى، انقبض صدره، وتمنّى لو انكسر ذلك الجهاز إلى الأبد.

لم يعد يتحدث كثيرًا، صار يتحدث إلى نفسه بصوتٍ خافت، كمن يُقنع روحه أن تحتمل أكثر.

كان يقول دائمًا:

"لو قُدّر لي أن أعرف فقط... أهو حيّ أم ميت؟ لارتحت من هذا العذاب المعلّق بين الرجاء والجنون".

أما أبو سعد، فلم يكن حاله أفضل. الاثنان تشاركا الحزن ذاته، والخذلان ذاته.

كانت الأسرتان تتواصلان كل بضعة أيام، يتبادلان ما يسمعان من أخبارٍ متضاربة، يواسيان بعضهما بالصبر، لكن مع مرور الأيام بدأ الاتصال يخفت.

كل عائلةٍ انسحبت إلى داخل جدرانها، تمارس حزنها بصمت، كما لو أن الوجع أصبح أمرًا خاصًا لا يُشارك.

لكن أم حمد بقيت مختلفة عن الجميع. كانت ترفض فكرة الموت، ترفض أن يكون الغياب نهاية القصة.

كانت تقول بثقةٍ غريبة:

-حمد ما مات... والله يرجّعه لي، حتى لو بعد سنين.

كل يوم، بعد صلاة الفجر، تفرش سجادتها للدعاء، تبكي وتدعو، ودموعها تسقي صبرها. كانت تشعر أن كل سجدة تُقرّبها من الخبر المنتظر، وأن الله يسمعها وإن طال الصمت.

مرت الليالي ثقيلة، لكنها ظلت تنتظر...

تنتظر الباب أن يُفتح، أن يدخل ابنها بابتسامته المعهودة، أن يقول لها:

"يمّه، تأخرت بس رجعت".

لكن الباب ظلّ صامتًا، والرياح وحدها هي التي كانت تزوره كل مساء، تُحرك ستائر الانتظار، وتُذكّرها أن الفقد لا يُشفى منه أحد... بل يُتعايش معه فقط.

23- زاخو

في طرف الكهف المظلم، حيث لا يسمع سوى صفير الرياح الباردة وهي تصفع الصخور العارية، جلسا متجاورين، يراقبان بصمت قطيعًا من الطيور المهاجرة حطّ قريبًا منهم. اقتربت إحدى الطيور بخطوات حذرة، رفرفت بجناحيها قليلًا ثم مالت نحو الإناء المليء ببقايا الماء وشربت. تبعتها بقية الطيور واحدة تلو الأخرى، وكأنها أخذت إذنًا غير مكتوب من رفيقتها الأولى.

كان المشهد بسيطًا، لكنه بالنسبة لهما بدا وكأنه لوحة سماوية ترسم معنى الحرية المفقودة. تبادلا نظرات سريعة، ثم أعادا أبصارهما نحو الطيور، يتأملان كيف تشرب، وكيف ترفرف بجناحيها بعد كل جرعة وكأنها تستعيد الحياة من جديد. همس حمد بصوت مبحوح:

-حتى الطيور تعرف طريقها وتعود متى شاءت... ونحن هنا لا نعرف متى تعود أرواحنا لأجسادنا.

لم يجب سعد، اكتفى بابتسامة شاحبة وبتنهيدة خرجت من أعماقه، تحمل وجع الأيام التي مضت عليهم بين جدران الصمت والبرد والخوف. شعر الاثنان أن الطيور تحمل رسالة رمزية موجعة؛ فكل جناح يخفق أمام أعينهما كان يذكّرهما بما سُلب منهما من الحرية.

في تلك اللحظات، لم يعد بينهما كلام. كان الصمت أكثر صدقًا من الكلمات. نظراتهما تهرب من عيون بعضهما، لأن العيون أصبحت مرآة للألم، وكلما تلاقت انسكبت الدموع الساخنة على الخدود الهزيلة. لم يكن البكاء ضعفًا، بل كان ترفًا مؤقتًا، كنافذة صغيرة يتنفس منها القلب المحاصر.

كانت ليالي الجبال أقسى من أن توصف. البرد فيها لا يلسع الجلد فحسب، بل يتسلل إلى العظام. الرياح تعوي كذئاب جائعة، والماء في الإناء يتجمد مع أول خيط فجر، حتى أن النار التي يشعلانها بجهد كبير كانت تخبو قبل منتصف الليل، تاركة خلفها رمادًا وذكريات دافئة منتهية.

كثيرًا ما كان سعد يستيقظ في آخر الليل على سعال حمد الحاد، فيحاول تغطيته ببقايا بطانية ممزقة، ثم يجلس قربه يحرس أنفاسه كمن يحرس أملًا أخيرًا. الوجوه من حولهم تتغير (حراس يدخلون وآخرون يغادرون) لكن القسوة واحدة، والخوف متجذر في الجميع. حتى الحراس الذين يبدون متجهمين كانوا في الحقيقة سجناء آخرين، سجناء من نوعٍ مختلف، تحكمهم الأوامر وتقيّدهم الخشية من رؤسائهم.

لم يكن أحد يجرؤ على التحدث إليهما. إن عطس أحدهما، سارع الحراس إلى الإمساك بأسلحتهم كأن العطاس مؤامرة. كان الخوف متبادلاً، والمكان كله يعيش على حافة الانفجار.

وفي يومٍ بدا مختلفًا بعض الشيء، زارتهم الفتاة ذات العيون الزرقاء من جديد. كانت تظهر من وقتٍ لآخر، لكنها هذه المرة جاءت وحدها، بخطوات مترددة وابتسامة مزيفة لا تصل إلى عينيها. توقفت أمامهما، ثم جلست قُرب النار، أخرجت علبة سجائرها وأشعلت واحدة ببطء متعمّد. نفخت دخانها في وجهيهما، وكأنها تختبر مدى تحمّلهما للإهانة.

تجاهلاها تمامًا. لم تعد تلك الفتاة الغامضة تثير في نفسيهما ما كانت تثيره من قبل، فقد تشابهت الوجوه جميعها في نظرهما. الجمال الذي لا يرافقه رحمة يتحول إلى قناع بارد.

لكن سعد، وقد بلغ به القهر حد الانفجار، رفع رأسه فجأة وقال بصوتٍ متهدّج يختلط فيه الغضب باليأس:
-بلّغي قيادتكم أننا قبلنا حكم الإعدام. لم تعد للحياة عندنا قيمة، البرد والمرض كفيلان بأن ينتهيا بنا قبل رصاصكم. على الأقل الرصاصة أرحم.

رمقته الفتاة بنظرة طويلة لم تُفصح عنها ملامحها. ظلت تدخن بصمت، تقلب الحطب بعصاها وكأنها تستمع إلى لحنٍ حزين ينبعث من النار. طال صمتها حتى خُيّل إليهما أنها لن ترد، لكن فجأة نطقت بصوتٍ هادئ غريب:

-سمحت القيادة بالفدية.

رفع الاثنان رأسيهما في وقتٍ واحد، وكأن شرارة أمل اشتعلت في قلبيهما. تابعت ببرود:

-بعد التحقيق، تبين أنكما لستما جواسيس. هناك تبادل أسرى يجري بين الأحزاب، وأسماؤكما لم تدرج، لذا سُمح بالفدية... خمسين ألف دينار عن كل واحد منكما".

سألها سعد بسرعة، وعيناه تتعلقان بخيط الأمل:
-وكيف نؤمّن المبلغ ونحن أسرى؟ كيف نخبر أهلنا؟"

ضحكت ضحكة قصيرة مستفزة، ثم قالت ببرودٍ قاتل:
-هذه مشكلتكم. لا يمكننا التواصل مع عائلاتكم، الحكومة تراقب كل شيء. إذا علموا بالأمر، ستُفتح علينا عيون كثيرة نحن في غنى عنها.

نهضت وهي تعلق سلاحها على كتفها، التفتت نحوهما قبل أن تغادر، رفعت سلاحها الرشاش ولوّحت به بخفة وقالت:

-فكّرا جيدًا، فالفرص لا تأتي مرتين.

وغابت بين الصخور، تاركة وراءها دخان سجارتها يختلط بدخان النار الخافتة، وأسئلة لا جواب لها.

جلس سعد مطرقًا، بينما همس حمد بصوتٍ مبحوح:
-هل كانت صادقة؟ أم هذه لعبة جديدة؟"

أجابه سعد بعد لحظة صمتٍ طويلة:

-حتى لو كانت لعبة، فهي أول مرة نلعب فيها على أمل، لا على خوف.

ثم نظر إلى الطيور التي لا تزال تحوم بعيدًا، وقال كأنه يحدث نفسه:

-الحرية يا حمد... حتى الطيور تعرف طريقها، ونحن ما زلنا ننتظر من يدلنا على طريق العودة.

سكنت الأصوات إلا من أنين الريح، وراح الليل يطبق على الكهف شيئًا فشيئًا، بينما بقيت نار صغيرة تتوهج في صدريهما، نار الأمل، وإن كانت تحرق أكثر مما تدفئ.

24- الموصل

بعد أن أنهك اليأس روح أبي حمد، وبدأت الأيام تسحب من عينيه بريق الرجاء، قرر ألا يبقى أسير الانتظار، بل يسافر بنفسه إلى العراق باحثًا عن ابنه المفقود، عسى أن يلامس خيطًا من الحقيقة بين ركام الصمت الطويل.

كانت العراق التي دخلها، غير تلك التي عرفها أيام العقيلات، أيام الرفاق والقوافل والتجارة، حين كانت بغداد تضج بالحياة وتفوح منها رائحة القهوة العربية في أزقة "الكرخ" و"الرصافة". أما اليوم، فكل شيء فيها متهالك، الشوارع تئنّ، والوجوه تلبس الخوف كقناعٍ دائم. البنايات غطاها الغبار، والناس تمشي بخطى مترددةٍ كأنها تخاف من ظلها.

دخل أبوحمد العاصمة وهو يحمل قلبًا مثقلًا بالأسئلة، وذاكرة تئن من صدى الغياب. راجع كل الجهات الحكومية، من مكاتب الأمن إلى دوائر الهجرة، ومن المستشفيات إلى المقابر. في كل مكان يسمع الجواب ذاته، بصوتٍ جامد خالٍ من الرحمة: "الأسماء غير معروفة... نعم، دخلوا بجوازاتهم من الكرخ... لكن لا أحد يعلم إلى أين ذهبوا بعد ذلك".

حتى السيارة التي دخلا بها لم تغادر الحدود، وكأن الأرض ابتلعتها.

خرج أبوحمد من آخر دائرة وهو يشعر أن أنفاسه أثقل من خطواته. سار بلا وجهة، حتى وصل إلى ضفة دجلة، فوقف أمام النهر العظيم الذي شهد على حضاراتٍ وغزواتٍ وانكسارات، وقال بصوتٍ مبحوحٍ كأنه يناجي غائبًا:

-يا دجلة الخير... أين أخذتهم أمواجك؟ أأخفتهم كما تخفي السر في عمقك؟ أم حملتهم إلى أرضٍ بعيدة لا سبيل لي إليها؟

كانت عيناه تحدّقان في صفحة الماء الهادئة، لكن في داخله كانت العواصف لا تهدأ. لم يدرِ كم من الوقت مضى وهو واقف هناك، يحدّث النهر كما لو كان صديقًا قديما. لكنه أحس في النهاية أن الأمل الذي حمله للسفر بدأ يتلاشى، وأن صوته يضيع في صمت البلاد الموجوعة.

بعد أسبوع من البحث المضني، قرر العودة إلى عرعر. في صباح يوم السفر، جلس خلف المقود وهو غارق في تفكيره، تذكر أم حمد التي كانت تودعه بالدعاء والرجاء، تنتظر عودته بخبر يرد إليها الحياة. كيف سيواجهها بخيبة الأمل؟

أوقف السيارة على جانب الطريق، أسند رأسه إلى المقود وأغمض عينيه المنهكتين، لعل النوم يمنحه

لحظة نسيان، لكن بدلاً من ذلك، مرّ طيف حمد أمامه حيًّا، باسماً، يناديه بصوتٍ طفوليٍ كما كان يفعل في صغره. شعر بقشعريرة تسري في جسده، ثم انفجر صارخًا باسم ابنه، كأن النداء سيعيده من الغياب.

غسل وجهه بماءٍ بارد، توضأ واستقبل القبلة على التراب، رفع يديه المرتجفتين إلى السماء، وأخذ يناجي الله بدموعٍ خاشعة:

-يا من لا تضيع عنده الدعوات، يا من يعلم السر في البر والبحر، إن ضاع مني ولدي، فأنت لا تضيع أحدًا من عبادك.

وبينما كان جاثيًا على ركبتيه، شعر بسكينةٍ عجيبة تسري في قلبه. خطر في باله فجأة اسمٌ كان قد نُسي مع الزمن، صديقه القديم الشيخ جاسم مطر في قرية "العاشق" قرب الموصل. لم يزره من قبل، لكنه تذكّر أنه من الرجال الذين لا يردّون محتاجًا. قال في نفسه :ربما أجد عنده خيطًا يوصلني لما انقطع من الأمل.

قاد سيارته باتجاه الموصل، والطريق أمامه كأنه شريط من الذكريات. لم يكن يرى شيئًا حوله، فقد كان غارقًا في عالمٍ داخليٍ بين الخوف والرجاء.

وعندما دخل قرية "العاشق"، وجدها كأنها مهجورة. البيوت متباعدة، تتناثر بينها الأشجار اليابسة، لا يسمع

سوى نباح كلبٍ بعيد وصوت الريح وهي تداعب الأبواب المعدنية الصدئة.

توقف عند محطة وقود صغيرة، وسأل أحد الرجال عن بيت الشيخ جاسم مطر، فأشار له إلى الطرف الشمالي من القرية. تابع السير حتى وصل إلى بيتٍ قديم تحيط به الجدران الطينية، وبابه الحديدي متآكل من الصدأ كأنه لم يُفتح منذ زمنٍ طويل.

طرق الباب بخفة، ثم انتظر، متيقنًا أن البيت مهجور. لكن فجأة، انفتح الباب ببطء، وخرجت منه امرأة مسنّة، ترتدي حجابًا أسود وعصابة سوداء فوق رأسها، وعلى ذقنها ثلاث وشومٍ زرقاء على هيئة مثلثٍ صغير. كان منظرها غريبًا، عيناها نافذتان كأنهما تخترقان الصمت.

سألته بصوتٍ مبحوحٍ خشن:

-ماذا تريد يا رجل؟

أجابها أبوحمد بهدوءٍ واحترام:

-هل هذا منزل الشيخ جاسم مطر؟

قالت بعد لحظة صمت:

-نعم، من أنت؟

-أنا أبوحمد... صديقه من السعودية، جئت أبحث عنه في أمرٍ عاجل.

تغيّر صوتها فجأة، وأخذت نبرة الترحيب تخفف من غلظة الموقف:

-أهلاً وسهلاً بك، الشيخ جاسم في الموصل وسيعود قبل المغرب... تفضل، البيت بيتك.

تردد أبوحمد قليلًا، نظر إلى الساحة الخالية خلفها، ثم إلى عينيها التي خفّ فيها القسوة شيئًا فشيئًا، كأنها أحست بثقله وهمّه. عندها نادت على أحد الأطفال:
-يا علي، خذ عمّك إلى المجلس، وأكرمه بالشاي.

دخل أبوحمد مترددًا، يشعر كأنه يعبر عتبة قدرٍ جديد، لا يعلم إن كان سيحمل له البشرى التي ينتظرها منذ شهور، أم خيبة أملٍ أخرى تُثقل صدره أكثر. ومع كل خطوة يخطوها داخل ذلك البيت الشعبي العتيق، كان يسمع صدى قلبه يخفق برجاءٍ خافت:
لعل هذه القرية تخبّئ لي خبرًا من السماء... خبرًا عن حمد.

25- قرية العاشق

دخل أبوحمد المجلس المتواضع بخطواتٍ مترددة، وكأن كل خطوة تقوده إلى ذاكرةٍ منسية في عمق الزمن. كانت الجلسة أرضية قديمة، مفارشها باهتة الألوان، والجدران مشققة، علّقت عليها صورتان لشابين في مقتبل العمر، ملامحهما تشبه الشيخ جاسم مطر، وقد أضفى عليهما الغبار مسحة حزنٍ صامتة. جلس أبوحمد قرب نافذة خشبية كبيرة تطل على فناءٍ خالٍ إلا من نخلةٍ وحيدة تتمايل تحت الريح، وكأنها تئنّ مع أنينه الداخلي.

دخل الطفل الصغير "علي" يحمل صينية الشاي العراقي. كان الصبي هادئًا على غير عادة الأطفال، ينفذ ما يُطلب منه بجديةٍ أكبر من عمره، قد ورث كآبة المكان وصمته، حتى حين تحدث إليه أبوحمد لم يجبه إلا بكلماتٍ مقتضبة. شعر الضيف أن هذه البيوت أنهكها التعب، وأن الحزن يسكنها كما يسكن الغبار الجدران القديمة.

مرّت ساعة أو أكثر في صمتٍ ثقيل لا يقطعه سوى نباح كلبٍ بعيد وصوت الريح وهي تصفع شبابيك المجلس. كان أبوحمد يسرح بعينيه نحو الفناء، تارةً يتأمل السماء الرمادية، وتارةً يحدق في صورة الشابين المعلّقتين أمامه، يتساءل في نفسه :

كم من أمٍ عراقية تبكي اليوم أبناءها؟ وكم من أبٍ مثلي يبحث عن ولده بين الغياب والموت؟

فجأة، سمع صوت سيارةٍ تقترب من البيت. ارتفعت سحابة غبارٍ خفيفة أمام الباب، ثم ترجل منها رجلٌ متكئ على عصاه، يجرّ خطواته بتعبٍ، وقد غزا الشيب رأسه وانحنى ظهره من ثقل السنين. كأنّ يمشي كمن يحمل على كتفيه أثقال الحرب والحياة معًا.

فتح الباب وهو يردد عبارات الترحيب المعتادة دون أن يتبيّن وجه الزائر، وما إن دخل المجلس ورأى أبا حمد حتى تجمّد في مكانه لحظة، ثم صاح بصوتٍ متهدّجٍ من الدهشة والفرح:

-أبوحمد؟ يا سبحان الله! أهذا أنت؟!

ابتسم أبوحمد بمرارةٍ وهو ينهض مسرعًا نحوه، عانقه بقوةٍ امتزج فيها الحنين بالألم، كأن كلاً منهما يعانق جزءًا من ماضيه الضائع. كان اللقاء أشبه بعودة زمنٍ قديمٍ من الرماد. جلسا متقابلين، والدموع تلمع في عينيهما، يتحدثان عن أيام عرعر القديمة، عن السوق، عن القوافل، عن أصدقاء فرقتهم الأيام.

غير أن فرحة اللقاء ما لبثت أن تراجعت أمام وجع الواقع. بدأ الشيخ جاسم مطر يتحدث بصوتٍ متعبٍ عن همومه، عن الحرب التي أخذت منه كل شيء. قال وهو يسحب نفسًا عميقًا من سيجارته:

-يا صديقي... الحرب لا تترك وراءها إلا الرماد. رحل ابني مطر شهيدًا في المعركة، وها هو أخوه الأصغر يرقد الآن في مستشفى الموصل، أصيب بطلقٍ ناريٍ في الجبهة، لا أدري إن كان الله سيمنّ عليه بالشفاء أم لا".

سكت قليلاً، ثم تابع بصوتٍ يغص بالوجع:

-أنظر إليّ، هذا أنا في خريف العمر... لم يبقَ لي من الحيلة شيء، كنتُ أظن أن الأبناء هم العصا التي يتكئ عليها الرجل حين يضعف، لكن الحرب كسرت العصا وتركتني أتوكأ على وجعي.

كان أبوحمد يصغي بصمتٍ مطبق، عاجزًا عن الكلام، يشعر أن كلمات العزاء لا تليق بهذا الجرح الكبير. في داخله كان يقول:

-يا الله... أيّ ألمٍ هذا؟ كلنا ضحايا هذه الحروب التي لا تنتهي.

عاد "علي" يحمل العشاء :الدولمة تفوح منها رائحة النعناع والبهارات، وطبق من السمك المسكوف المشوي على الفحم، مع خبزٍ عراقيٍ طازجٍ يملأ الغرفة عبقًا. جلسا يأكلان بصمتٍ متقطع، بينما الشيخ جاسم يتحدث عن تفاصيل الحرب اليومية، عن الجنود، عن القصف، عن الدمار الذي لا يفرق بين بيتٍ وآخر.

بعد العشاء، شعر أبوحمد أن الوقت قد حان ليكشف سبب زيارته. تنحنح بهدوء وقال:

-يا أبا مطر... جئت إليك لأمرٍ جلل، فقدتُ ابني حمد وصديقه سعد منذ شهور في العراق، دخلوا عبر منفذ جديدة عرعر ولم يظهر لهم أثر. بحثت عنهم في كل الدوائر، لم أجد إلا الصمت والإنكار. جئت أستعين بك بعد الله، فلعلّ عندك من يدلني على خيطٍ يوصلني إليهم.

سكت أبومطر لحظة، أطرق رأسه، ثم رفع عينيه إليه وقال بصوتٍ خافت:

-أعطني صورهم يا أبوحمد.

أخرج أبوحمد من جيبه صورتين، ناوله إياهما بيدٍ ترتجف من الخوف والأمل معًا. أخذ أبومطر الصور وتأملها طويلاً، وبدا على وجهه شرودٌ غريب. كانت نظرته متفحصة، كأنه يحاول أن يسترجع شيئًا رآه من قبل. في تلك اللحظة شعر أبوحمد بخفقانٍ في صدره، كأنه على وشك سماع خبرٍ يغيّر مجرى حياته.

رفع أبومطر رأسه وقال بنبرةٍ واثقةٍ فيها بصيص أمل:
-قبيلتنا منتشرة في أكثر من محافظة، بين الموصل ودهوك وزاخو. سأوزع الصور على رجالي، فربما يصلنا خبرٌ عنهم. لا تقلق، لن يضيع من وُجد له من يسأل عنه.

كانت تلك الجملة كنبع ماءٍ يتدفق في قلبٍ عطِش. شكر أبوحمد الشيخ بحرارةٍ وهو يحاول أن يخفي دمعةً سالت دون إرادة. حاول أبومطر أن يقنعه بالمبيت عنده، لكن أبا حمد اعتذر قائلاً بصوتٍ متهدّج:
-أشكرك يا صديقي... قلبي مضطرب لا يعرف طعم النوم، سأواصل الطريق إلى الموصل الليلة، فكل لحظة تمرّ قد تكون فيها حياة أو موت لولدي.

عانقه أبومطر مرةً أخرى، وقال له وهو يربت على كتفه:
-اذهب على بركة الله، وسأجعل من هذه الصور أمانة في عنقي حتى يردّ الله الغائب إلى أهله.

خرج أبوحمد من البيت، والليل قد بدأ يرخي سدوله على القرية. كان القمر نصف دائرةٍ يتسلل ضوءه على الطريق، والريح الباردة تلفح وجهه كأنها تهمس له: "ما دام في قلبك أمل، فلن يغيب الغائب طويلاً"...

26- زاخو

دخلت عليهم الفتاة ذات العيون الزرقاء، ملامحها تشتعل بالغضب، وخطواتها تضرب الأرض كأنها ترجّ الصمت الثقيل الذي خيّم على المكان منذ أيام طويلة. كانت تحمل بيدها رُزمة من المنشورات تلوّح بها بعصبية، وأصوات الورق المتطاير حولها تشبه أجنحة الطيور المذعورة. ما إن اقتربت منهم حتى ألقت الأوراق على الأرض بعنف، فتناثرت صورهم عليها، وقد طُبعت أسفلها كلمات باللغة العربية والكردية تعلن أنهم مفقودون، وتحمل توقيعًا واضحًا :الشيخ جاسم مطر.

اشتعل الغضب في عينيها أكثر، وبدأت تضرب الأرض بقدمها ثم برشاشها، وصدى صوتها يرتطم بجدران المكان كالرعد، حتى راحت تطلق النار في الهواء. دوّى صوت الرصاص فاهتزت القلوب، واختلط الخوف بالأمل في صدري حمد وصديقه.

كانت تصرخ بعبارات غامضة بلغتها الكردية، لكن ملامحها وحدها كانت كفيلة بأن تفضح انفعالها، وكأنها تخوض حربًا داخل نفسها بين ما تؤمن به وما يُفرض عليها.

فجأة التفتت إليهما، وصوتها يرتجف من شدّة التوتر:

-لقد حاولتُ إقناع القيادة بدفع الفدية... وتمت الموافقة، لأننا نريد تحييد الحكومة. لكن من نشر هذه المنشورات أشعل النار في الهشيم! أثار الرأي العام، وجعل المواجهة مع عناصر الحكومة مسألة وقت. وبصراحة... أنتما ستكونان الضحية الأولى إن لم نتحرّك بحكمة.

لم تمنحهما فرصة للرد، فقد كانت تعرف في قرارة نفسها أنهما بريئان من تلك المنشورات، وأن أملهما في النجاة لا يزال معلّقًا بخيط رفيع من الصبر. رمت الورقة الأخيرة على الأرض وقالت بصوت متهدّج، كأنها تكتم غصّة:

-توقيع الشيخ جاسم مطر... قد يفتح لنا بابًا لا نعرف إلى أين يؤدي.

نظر حمد إلى الورقة طويلاً، كانت الصورة أمامه باهتة لكن الكلمات كانت تنبض بالحياة، بارقة أمل بعد عتمة طويلة. ابتسم ابتسامة خافتة، غابت عن ملامحه منذ شهور. مدّ يده المرتجفة يلامس يد صاحبه، وكأن هذا اللمس الصغير إعلان غير منطوق بأنهما لا يزالان على قيد الأمل.

مرّت أيام ثقيلة حتى انقضى الأسبوع، ثم عادت الفتاة ذات العيون الزرقاء من جديد. كانت أكثر هدوءًا هذه المرة، وكأن عاصفتها هدأت بعد أن أرهقها الصراع الداخلي. دخلت بخطوات بطيئة وقالت بصوت خفيض:

- القيادة درست قضيتكما... ووجدت أن تلك المنشورات دلّت على شخص يمكن التفاوض معه لتأمين مبلغ الفدية. سيتم إرسال مندوب من طرفنا إلى الشيخ جاسم مطر للتفاهم معه، لأن القضية طالت أكثر مما يجب.

ثم أضافت، وهي تحاول أن تخفي تأثرها:

- أنا متعاطفة معكما... وسأفعل ما بوسعي لتساعدكما هذه المرة. إن سارت الأمور كما نرجو، ستستعيدان حريتكما... وسيارتكما أيضًا.

في تلك اللحظة، خفق قلب حمد بشدّة. لم يكن بحاجة إلى المزيد من التوضيح، فمجرد ذكر اسم الشيخ جاسم مطر جعله يستحضر وجه والده، وتخيل أن والدته هي من أرسلت المساعدة من بعيد، عبر رجل لم يخذله يومًا. شعر بأن الفرج يقترب بخطوات صامتة.

تحدث مع الفتاة حول المبلغ المطلوب، وحاول أن يساومها، لكن ملامحها كانت حازمة:

- هذا هو الحد الأدنى الذي وافقت عليه القيادة. لكن إن تمت الصفقة بهدوء، ستعودان سالمين، ولن تتدخل الحكومة في شيء.

في تلك الليلة، ولأول مرة منذ زمن بعيد، غلبهما النعاس مبكرًا. لم يكن نومهما عاديًا، بل كان نومَ من أنهكته المعاناة ثم أبصر ضوءًا خافتًا في نهاية النفق. كانت ملامحهما أكثر هدوءًا، وأنفاسهما أكثر انتظامًا، وكأنهما يعودان ببطء إلى الحياة التي سُرقت منهما. في الخارج، ظلّ الليل يهمس بلحن خافت، والريح تداعب ستائر الغرفة، كأنها تبشّرهما بأن الصباح القادم يحمل خبرًا طال انتظاره.

27- قرية العاشق

عاد الشيخ جاسم من زيارة ابنه المصاب وهو يحمل في عينيه شيئًا من الطمأنينة التي لم تكن تامة بعد، كما لو أن أملَ الشفاء سرى في عروقه شيئًا من الراحة. كان يتحرك بسيارته ببطءٍ معتاد، يتمايل مع نغمٍ قديمٍ ينبعث من المسجل، موال عراقي يشبهه؛ يذكّره بصوته بصدى الأيام الطيبة التي خفت ضوؤها مع ضجيج الحرب. لم يكد يغمض له العقل لحظة استرجاعٍ حتى انقلب المشهد.

قطع طريقه فجأة أربع رجال، عيونهم تلمع فيها شرارة ليست كشرارة بشرٍ عاديين؛ كانت شرارة الخوف والقسوة. لم ينطقوا بكلمة، تحقّقوا من هويته كما لو كانوا يفحصون ثمنًا ثم غطّوا وجهه بغطاءٍ أسود، حملوه وكأنه حمولة ثقيلة لا وزن لها من إنسان. داس القَدر على صدره، وشعر الشيخ بجسدٍ يضعف تحت وطأة المسافات والدهشة.

كل سؤالٍ يطرحه كان يُقابَل بمسدسٍ على رأسه، فصمت وانكفأ، الركب ترتعش، والصدر يئنّ من ثقل السلاح والكلام الذي لا يُقال.

أُخرِج من السيارة وساروا به قطعاً بين جبالٍ متصاعدة، وكل خطوة تكاد تقطع أنفاسه أكثر من سابقتها، وكل تأخر في السير كان يشرح مسافة القلق خلفه بسكوتٍ مقصودٍ من الذي يمسك الزناد. عند هبوطٍ قصيرٍ جلس على الأرض، وشعر أن النهوض سيكون فعلًا مستحيلًا. نزعوا عنه الغطاء، وإذا به في كهفٍ معتمٍ، رائحةُ الرطوبة فيه امتزجت برائحة التراب والحديد، كان منظرًا من عالم آخر، عالمٌ لا يعرف الرحمة.

أحضروا له إناء ماء، شربه بنهمٍ كان أشبه بعودة آخر لرجلٍ عطشان. حوله رجالٌ ملثّمون لا يتكلّمون، وجوههم محجوبة تعطي إشارة بأنهم منفّذون لأمرٍ ما، ينتظرون قدوم شخصٍ من القيادة. مرّت ساعة يبدو أنها عقود، ثم طرق صدى قدمٍ أخرق على الحصى، وظهر رجلٌ بصوته جهوريّ يرحّب بترحيبٍ مبالغ، ملامحه توحي بأنه يعرف هذا الشيخ قديمًا، أمسك بيده ليقوده إلى جهة أعمق في الكهف، وهناك، تحت الجدار الحجري، كانت المفاجأة: شابان منهكان، لكن القلوب حين رأت وجوه مألوفة ارتعشت.

عرف الشيخ جاسم حمد قبل أن ينطق أحد باسمه؛ احتضنه بقوةٍ انفجرت معها دموعهما، دموعٌ كانت تتقاطع فيها الندم والفرح والذنب لأنّهما تركاه وحيدًا بين أمواج الزمن. عانق سعد بعدها، ولم يكن في المجلس متسعٌ لشرح كل تفاصيل الهجر والاشتياق؛ الكلمات كثُرَت

لكنها بدت ناقصة. فطمأنهم الشيخ بما استطاع: أنه سيبذل جهده ويبحث حتى العشب عنهم.

ثم جلست الوجوه المتشددة في دائرةٍ صغيرة، ورجلُ الصوت القوي جلس مقابلاً الشيخِ كأنه على كرسيٍ قديم، وأخذ يتلو شروطه بصوتٍ صارم:

- رأينا منشوراتكم، وقد تأكدت أن الشابين بصحةٍ جيدة. والحل الآن دفع الفدية. المطلوب مئة ألف دينار عن الواحد.

غشى وجه الشيخ شحوبٌ جديد. كأن المال يقايض أرواحًا. تقدم إلى الشابين ناظراً في عيونهما كما يفحص رجلٌ إن كانت لهما روحٌ يمكن رثاؤها، ثم سأل بمرارةٍ ممتزجة بحزمٍ:

- وكيف تضمنون لي، إطلاق سراحهما بعد استلام المال؟

ابتسم الرجل ابتسامةً ليست للرحمة، وسأل ببرودٍ يخبئ خلفه منطقًا ملغومًا:

- لو أردنا أن نبيّن حسن النية وتختار واحدًا نطلق سراحه كبادرة، من تختار يا شيخ؟

وقف السؤال أمامه كفخٍ؛ هو لم يأتِ ليُقسم رجله إلى نصفين أو ليزيد ألم أمٍ على ألم. أجاب فورًا، دون تردد:
-كلاهما لي سواء. لا فرق بينهم.

صاح الرجل بحدةٍ تهدِّد الهدوء:

- سنعطيك أسبوعًا واحدًا لإحضار المبلغ. وبعد انقضاء الأسبوع يعتبر الاتفاق لاغيًا.

سأل الشيخ عن وسيلة تواصل معهم. كانت الإجابة باردةً وبسيطة كطلقة:

- إذا توفر عندك المبلغ، أطلق ثلاث طلقاتٍ نارية بعد العشاء. ستكون إشارةً توصلنا. لكن احذر أن تُخبر الحكومة أو أي جهة رسمية. إن فعلت، فستكون عاقبة ذلك انتقامًا لا يرحم، سنمحي قريتك من الخريطة".

عند ذكر كلمة "قريتك" تجمد الدم في عروق الشيخ، صورة "العاشق" وبيوتها الصغيرة التي تأنّت بالفقد ارتسمت أمام عينيه. عادوا إليه وغطّوا رأسه مجددًا، ونقلوه إلى العتمة، لكن عتمته هذه المرة لم تُطفئ ضوءًا، شرارةٌ من غضبٍ أعمق ونبضٍ من خوفٍ أشد.

في طريق العودة، بينما يلفّ الصمت الكهف كما يلفّ الأسد فريسته، بدأ العقل يحسب حساباتٍ لا مرفق لها. كيف يوفر المبلغ وهو رجل متواضع؟ كيف يعلّق قلب أم تنتظر؟ كيف يبرر العودة إلى القرية دون أن يحمل خبرًا ينقض آمالها أم ينتقص روحها؟ كل الإجابات كانت قاسية، لكنها مهدت لمشاعرٍ أقوى، عزيمةٌ لا تساوم.

وصل الشيخ إلى خارج الكهف، وأعاد نفسه خطوة بخطوة إلى عالمٍ يبدو الآن هشًا كزجاجٍ قديم. ظلّ يفكر في أن يبيع ما يملك، أن يناشد قبيلته، أن يلجأ إلى أصدقاءٍ قدامى، أو أن يرجع إلى أبوحمد في السعودية طالبًا أي مساعدة متاحة. العينان الممتلئتان بخيالات الخراب تلاقتا مع دعاءٍ جافٍ:

- يا رب، إن كنتُ عاجزًا، فهب لي وسيلةً تساعدني.

كلما تبنى قرارًا بدا له كطوق نجاة وجد صعوبة في تنفيذه، عاد إلى قريته، لن يُريح قلبه حتى يجمع ما يستطيع، ولن يدع القلوب الصامتة تموت دون أن يحاول إنقاذها. حمل في صدره ثقل الخيارات ووهج الطاقة الذي يتغذى عليه الرجاء.

28- عرعر

كان صباحًا ربيعيًا دافئ النسيم حين فتح أبوحمد محل الصرافة كعادته. الشمس تتسلل بخيوطها الذهبية بين ممرات السوق، وتداعب الوجوه النائمة على أمل الرزق، فيما تنبعث من شارع السمن القريب رائحة السمن البري التي تعبق الجو كأنها رسالة من الأرض تقول:

ما زال في الدنيا طيبٌ رغم كل ما فسد فيها.

وقف أبوحمد أمام دكانه يراقب الحياة تمضي ببطء، يتبادل التحايا الصباحية مع المارة الذين يعرفهم واحدًا واحدًا، وجوههم مألوفة كصفحات دفترٍ قديم. لكن السوق كان خافت الحركة، ثقيل الخطى؛ فالحرب البعيدة ألقت بظلها على التجارة والقلوب معًا.

وبينما هو منهمك في ترتيب أوراقه الباهتة، أقبل موظف البريد حاملاً في يده برقية مختومة بختمٍ عراقي، ناولها لأبي حمد بابتسامةٍ روتينية، ثم مضى تاركًا وراءه سحابةً من الغبار. فتحها الرجل بعجلةٍ وفضول، فقرأ:

- احضر فورًا ومعك 200 تنكة سمن عراقي، التوقيع: الشيخ جاسم مطر.

وقف متسمّرًا، مبهورًا من غرابة النص، كمن تلقّى رسالة من عالمٍ آخر.

مئتا تنكة سمن! تساءل في نفسه وهو يتأمل الورقة، يقلبها مرةً تلو الأخرى لعلّ بين السطور ما يُفسِّر هذا اللغز. العراق لا يحتاج سمنًا، بل هو موطنه الأصلي، فماذا يقصد الشيخ جاسم بهذا الطلب العجيب؟

جلس على مقعده الخشبي القديم، أصابعه تعبث بالورقة وذهنه يفيض بالاحتمالات، حتى دخل عليه صديقه العراقي أبوكاظم، رجلٌ عرفه منذ أيام الطيب والرخاء، صاحب وجهٍ لا تخلو تجاعيده من الذكاء والظرف.

نظر أبوكاظم إلى ملامحه القلقة وسأله:

-وش فيك يا أبوحمد؟ وجهك مو وجه رجلٍ افتتح يومه بالرزق!

ناولَه البرقية دون كلام، اكتفى بالنظر إليها بعينٍ ترجف بين الدهشة والرجاء. قرأها بسرعة ثم رفع رأسه مبتسمًا ابتسامةً تحمل معنى أكبر مما نُطق به، وقال بصوتٍ خافت:

-الرجال يخابرك، عنده خبر يسعدك عن ولدك حمد ...يقصد بالتنكات مئتي ألف دينار عراقي.

توقف الزمن في تلك اللحظة. شعر أبوحمد أن نبض قلبه ارتفع فجأة، كأن داخله جرسٌ من نور يدقّ بعد صمتٍ طويل.

-مئتا ألف!؟ الحمد لله، الحمد لله... إذًا هو حي؟
-هذا اللي ظاهر من كلام الشيخ، واللي أعرفه عنه إنه ما يرسل هيك برقية إلا لأمرٍ كبير.

نهض أبوحمد وكأنه انتُشل من بحرٍ من الهموم:
-بسافر بكرة الفجر، ما عاد فيني صبر.

-معك تأشيرة دخول العراق؟

-نعم، تأشيرتي ما انتهت بعد.

-طيب، خلنا نسافر سوى بسيارتي. كنت ناوي أزور البصرة، لكن أهلي الآن كلهم ببغداد، والطريق واحد.
-جزاك الله خير يا أبوكاظم، والله نعم صاحب.

هزّ أبوكاظم رأسه بابتسامة خفيفة وقال:

-بس انتبه، لا تحمل الفلوس بشكل ظاهر، خذها موزعة على ملابسك، الحدود مشددة هالأيام. وأنا عندي ناس يعرفوني بالمنفذ العراقي، راح يسهلون المرور. بعد أذنك، أمرّ على كفيلي وأسوي تأشيرة خروج وعودة. نلتقي قبل الفجر.

أغلق أبوحمد محله وهو لا يكاد يصدق ما يحدث. طوال الطريق إلى بيته كان يسمع دقات قلبه كأنها طبول بشرى، وتتماوج في ذهنه صورة حمد وهو يركض نحوه بابتسامةٍ قديمةٍ لم يرها منذ شهور طويلة.

عندما دخل البيت، كان الغداء على المائدة. جلست العائلة حوله بعيونٍ مترقبة، فقد لاحظت ابنته الصغيرة نورة التغير العجيب في ملامحه؛ لم يكن وجه أبيها اليوم وجه رجلٍ محمّلٍ بالهموم، بل وجهُ من شمّ أخيرًا نسمة الأمل.

كان يأكل بشهيةٍ غير معتادة، يغمس اللقمة في المرق ثم يرفع عينيه إلى السقف وكأنه يشكر الله في سرّه. كانت أم حمد تنظر إليه بصمتٍ طويل، ملامحها منهكة، فقد أذابها الحزن. من كثرة البكاء ذبلت وجنتاها، وبرزت عيناها كنافذتين على بحرٍ من الدموع، تغفو أحيانًا وتفيق وهي تنادي اسم ابنها في غيبوبةٍ من الشوق.

رفع أبوحمد رأسه بعد الغداء وقال بصوتٍ فيه نبرة حازمة:
-يا جماعة، جاني اليوم خبر من العراق... الشيخ جاسم مطر أرسل لي برقية، وأظن إن فيها بشارة. لازم أسافر بنفسي وأتأكد.

سكت قليلاً، ثم أضاف بنبرةٍ أقرب إلى الرجاء منها إلى اليقين:

-ما أقدر أوعدكم بشيء، لكن قلبي يقول إن الفرج قريب.

ساد الصمت. كانت العيون تقول ما عجزت عنه الألسن .الخوف والأمل تشابكا داخلهم مثل خيوط ضوءٍ على وشك أن تنقطع.

نورة، التي كانت دائمًا تعلق وتتكلم، جلست اليوم صامتة، تشد أطراف ثوبها بعصبيةٍ مكتومة. غياب أخيها كسر فيها شيئًا لا يُرى، كأن طفولتها ضاعت معه.

وحين همّ أبوحمد بالقيام، مدت أم حمد يدها نحوه برفقٍ متعب، قبضت على يده بقوةِ أمٍّ تجمع كل دعائها في لمسة. كانت ترغب في الكلام، في الصراخ، في أن ترجوه ألا يذهب وحيدًا، لكنها لم تستطع. خارت قواها، وغرقت في صمتٍ أليم.

نظر إليها، فعرف أن الصمت هذه المرة لا يعني الرفض، بل الخوف، والرجاء، وشيئًا من الإيمان الذي لا يُقال إلا بالدموع.

تركها وهو يشعر أن الرحلة القادمة ليست مجرد سفر، بل عبور بين حياةٍ وموت، بين وعدٍ قديمٍ وكرامة أبٍ يرفض أن يدفن ابنه في الغياب.

وفي تلك الليلة، قبل أن ينام، جلس قرب النافذة ينظر إلى السماء، رأى نجمةً وحيدةً تتلألأ بين الغيوم، تميل كأنها تهمس له:

"سِرْ، فالله لا يضيع القلوب التي تؤمن بالرجوع".

29- قرية العاشق

كان الفجر قد بدأ يرسل خيوطه الرمادية على أطراف عرعر حين دوّى صوت المحرك القديم للسيارة الأمريكية في سكون الحيّ، كأنه نداء الوداع.

خرج أبوحمد من بيته بخطوات بطيئة متثاقلة، يحمل على كتفه حقيبته الصغيرة التي لا تحتوي سوى القليل من الثياب والكثير من القلق. كان قلبه مثقلاً بالانتظار وبالرجاء الذي يعيش على حافة الخوف. ظنّ أن زوجته وبناته ما زلن غارقات في نومهن، لكنه ما إن التفت ليلقي نظرة أخيرة على بيته، حتى لمح عيونًا دامعة تلمع من خلف النوافذ. كانت أم حمد وبناتها يراقبنه في صمتٍ مهيب، وكأن أنفاسهن محبوسة. تلك النظرات كانت أشبه بدعاءٍ لا يُقال، تفيض بالرجاء وتقطر بالوداع.

خفض رأسه سريعًا، شاح بوجهه لئلّا تفضحه دمعة ساخنة كادت تفلت من عينيه، ثم مضى بخطواتٍ أسرع، كمن يخشى أن يستوقفه الحنين.

ما أن ركب السيارة حتى بدأ أبو كاظم، رفيقه العراقي، يسرد له حكاياته وسيرته الطويلة عن الغربة والسنين العجاف التي عاشها بين الحروب والحدود. كان يحاول أن

يخفف توتر الرحلة بالكلام، بينما أبوحمد صامتٌ، غارق في بحر أفكاره، لا يسمع إلا نبض قلبه المضطرب، ولا يرى إلا وجه ابنه حمد المفقود.

انطلقت السيارة تشق طريقها الطويل نحو الحدود، والريح تضرب زجاج النوافذ كأنها تذكّرهم بصعوبة الطريق.
مرّوا من الحدود السعودية بسهولة ويسر، لكن ما إن وصلوا إلى الحدود العراقية حتى بدأ فصلٌ آخر من المعاناة. اقتيد أبو كاظم إلى مكتب ضابط الجوازات، وبقي هناك ساعاتٍ طويلة كأنها دهور.

أما أبو حمد فجلس في زاوية صامتًا، يحاول أن يبدو هادئًا بينما عرق الخوف يتصبب من جبينه. كان يشعر بالمال المخبأ في طيات ملابسه وكأنه نار تلسعه، يخشى أن يُفتضح أمره أو يُسأل عن سبب وجوده. رفع بصره إلى السماء هامسًا بدعاءٍ صامت، وابتلع خوفه بصبرٍ ثقيل. وأخيرًا خرج أبوكاظم من المكتب ووجهه شاحب، وقال بصوتٍ مبحوح:

-ظنّوني من الخلايا النائمة ضد النظام... لكن لم يجدوا عليّ شيئًا، فتركوني وشأني.

تنفس أبوحمد الصعداء، لكن قلبه لم يهدأ بعد. تابعا طريقهما في صمتٍ ثقيل، بينما الشمس تميل نحو الغروب، تلون السماء بلونٍ برتقالي يختلط بالحزن.

توقفا في مطعم صغير على مشارف الموصل، أكل كلٌّ منهما بصمتٍ وكأن اللقمة لا تنزل بسهولة من الحلق. اقترح أبوكاظم أن يبيتا في المدينة، لكن أبوحمد رفض بإصرار، قال وهو يشد على كفه:

-لا أستطيع أن أنام وأنا أعلم أن ابني ينتظرني.

ابتسم أبوكاظم بأسى، ثم استدار يشعل محرك السيارة من جديد. انطلقا في طريقٍ موحشٍ تلفّه الجبال، والليل يزداد سوادًا، والريح تعوي كأنها تنذر بشيءٍ قادم.

لم يعد لدى أبوكاظم ما يقوله، بينما أبوحمد يتلهف للوصول، يحسب الدقائق والثواني، وكلما لمح ضوءًا بعيدًا ظنه بارقة أمل.

عند مشارف قرية العاشق، بدت بيوت الطين الصغيرة غارقة في الظلام، لا يسمع فيها سوى نباح كلبٍ بعيد.

أوقف أبوكاظم السيارة أمام بيتٍ متواضع يطلّ على الوادي، خرج منه الشيخ جاسم مطر ممسكًا بسلاحه، وجهه متجهم كمن يستعد لقتال. لكن ما إن اقترب ورأى أبوحمد حتى انفرجت ملامحه، وارتسمت ابتسامة شاحبة على وجهه، كأنها مصافحة بين الأمل واليأس.

عانقه بحرارة، ثم أدخلهما إلى المجلس الخارجي، حيث جلسوا على الأرض يتبادلون الحديث بصوتٍ خافت، تحيط بهم رائحة القهوة المرة ونيران الفوانيس الصغيرة.

روى الشيخ تفاصيل ما حدث مع الخاطفين، ثم سكت طويلاً قبل أن يقول:

-المبلغ جاهز؟

أخرج أبوحمد كيس النقود ووضعه أمامه بثبات، كانت يده ترتجف قليلًا لكنه حاول أن يخفي ارتباكه. نظر الشيخ إلى الكيس نظرة حذر، ثم حمل بندقيته وأطلق عيارًا ناريًا في الهواء.

اخترق الصوت سكون الليل، وتردد صداه في أرجاء القرية الهادئة.

قال أبوحمد بقلق:

-أعد إطلاق النار مرة أخرى... حتى يسمعوك. أعاد الشيخ الإطلاق، وانتظرا معًا، يراقبان الطريق والجبال من بعيد. لكن الصمت عاد يخيّم من جديد، لا حركة ولا إشارة.

مرّت ساعتان بطيئتان كأن الزمن تجمّد فيهما، حتى غلبهم النعاس من شدة التعب والترقب. ناموا في أماكنهم،

والليل يحتضن همومهم، إلى أن دوّى فجأة صوت سيارة جيب تقترب.

نزل منها أربعة رجال ملثمون، خطواتهم حازمة، وكلماتهم قصيرة صارمة.

تحدث زعيمهم بلهجة آمرة:

-غدًا قبل الفجر يتم التسليم والاستلام... في الوادي الجنوبي.
ثم أشار إلى الشيخ جاسم محذرًا:

-إن حاولت الخيانة، سنمحو قرية العاشق من الوجود... أتفهم؟

لم ينتظروا ردًا، ركبوا سيارتهم وغابوا في ظلمة الليل، تاركين خلفهم رائحة البارود والخوف.

جلس أبوحمد على الأرض، ملامحه منهكة، لكنه تمسك بخيط الأمل الأخير.

توضأ بصمت، ثم قام يصلي صلاة خاشعة، خالطت فيها دموعه سجادته الطينية، يهمس في سجوده:

"اللهم رد إليّ ولدي كما رددت يوسف إلى أبيه، واجعل هذا الفجر فجر فرجٍ ونور".

30- زاضو

حضرت الفتاة ذات العيون الزرقاء إلى الكهف، تحمل على وجهها ابتسامة متصنّعة تُخفي خلفها شيئًا مريبًا. رفع حمد وسعد رأسيهما إليها، وقد اعتادا أن ظهورها لا يعني إلا تهديدًا أو وعيدًا جديدًا.

لكن صوتها هذه المرة كان مختلفًا، أنثويًا رقيقًا، مشوبًا بنبرة غامضة:

قالت بهدوءٍ مريب:

-يؤسفني إبلاغكما...

انقبضت قلبيهما قبل أن تُكمل، ارتجفت أنفاسهما خشية أن تكون تحمل خبرًا يقضي على ما تبقى من أملٍ واهٍ في داخلهما. لكنها لم تُطل في صمْتها، بل تابعت بصوتٍ خافتٍ يشي بشيء من البشرى:

- قد يكون هذا اليوم هو الأخير لكما هنا... الفريق المفاوض توصّل إلى تسوية، والمطلوب منكما التزام الهدوء التام والاستعداد لما هو قادم .

غادرت المكان بخطواتٍ ثابتة، تاركة وراءها سحابةً من الأسئلة المعلّقة، وأسوارًا من الغموض لا إجابة لها.

لكن رغم ذلك، تسلّل الفرح إلى صدريهما كما يتسلّل الضوء إلى فجوةٍ في جدار مظلم. تعانقا طويلًا، حتى ابتلت ملابسهما بدموعٍ دافئة تشبه مطرَ الفجر بعد ليلٍ طويلٍ من الخوف والانتظار.

سأل سعد صديقه حمد، بصوتٍ خافتٍ كأنه يخشى أن يوقظ الحزن من نومه:

- من ينتظرك حين تعود إلى عرعر؟

صمت حمد لحظاتٍ، غارقًا في زحمة الذكريات، حتى ظنّ سعد أنه لن يُجيب. ثم قال بصوتٍ تملؤه الشجون:

- ينتظرني الجميع... أمي التي كنت أملها الوحيد، مازحتها قبل السفر حين ألحت عليّ بالزواج، فقلت مازحًا إنني سأغادر بلا عودة، فضحكت وقالت :اذهب، وسأنتظرك مهما تأخرت. أما أبي، فكان أكثر الناس لطفًا بي، ربما لأنه يراني امتدادًا لروحه. أخواتي الثلاث... كنّ عالمي الصغير، عشت بينهن بالمودة والضحكة والمرح. كانت أمي تقول لهن دائمًا :الرجال ليسوا كلهم مثل حمد. تزوجت الكبيرتان وغادرتا عرعر، لكن قلبي ظلّ يسكن معهما. سمّت الكبرى ابنها الأول باسمي. أما الصغيرة، نورة، فهي ظلّي منذ الطفولة، ترافقني في دروسي، وتغفو على كتفي. كنت إذا سافرت إلى الرياض تزورني كل شهر، وعندما يحين موعد

عودتي إلى هناك تختفي، تبكي بصمت لأنها تكره لحظة الوداع.

ساد صمتٌ طويل، امتزج فيه صوت الريح بحفيف أغلالهما، كأن المكان كله ينصت لوجع الذكريات. ثم سأل حمد صديقه بصوتٍ حنونٍ هذه المرة:

- وأنت يا سعد، من ينتظرك؟

تنهد سعد تنهيدةً ثقيلة خرجت من عمق القلب، وقال بنبرةٍ خافتةٍ تختلط فيها الرجولة بالوجع:
-أنت محظوظ يا حمد... أمك على قيد الحياة تنتظرك. أما أنا، فقصتي مختلفة... أنا أكبر إخوتي، وبعد عامٍ من ولادتي نضم أخي ناصر للعائلة، توأم روحي ورفيق طفولتي. كبرنا معًا، درسنا معًا، حتى ظنّ معلمونا أننا توأمان حقيقيان.

لكن في يومٍ أسود، دهسته سيارة أمامي... رحل وأنا واقفٌ عاجزٌ، وما زلت أحمل حتى اليوم وخز الضمير لأنني لم أحمه.

بعد عامين حملت أمي من جديد، فاستعدّ البيتُ لاستقبال مولودٍ جديدٍ يعيد الفرح إلى جدرانه. لكن القدر سبقنا جميعًا... رحلت أمي أثناء الولادة، وجاء المولود إلى الدنيا يتيمًا من اللحظة الأولى.

منذ ذلك اليوم تغيّر كل شيء. لم أعد ذلك الطفل المفعم بالحياة، صار في داخلي فراغ لا يُملأ، ووحشة لا يبددها أحد.

تزوج والدي لاحقًا من امرأةٍ طيبة من الأقارب، حاولت أن تكون لنا أمًّا، لكن كما يقولون :الأدوار في الحياة لا يُمكن استعارتها .بقيت أمًّا بالواجب لا بالعاطفة.

سكت سعد، وأطرق رأسه، وقد ارتجف صوته حين قال:
-لسنا بحاجة إلى فتح جراح الماضي، يكفينا ما عشناه في حاضرٍ يسرق أعمارنا يوماً بعد يوم.

جلسا صامتين، وكلٌّ منهما غارقٌ في بحرٍ من الذكريات، لكن خلف ذلك الصمت كان هناك بصيص أملٍ يلوح كضوءٍ بعيدٍ في نهاية نفقٍ طويل.

31- زاخو

العشاء الأخير، لم يكن مجرد وجبة، بل أشبه بوليمة وداعٍ مُرّة النكهة، اختلطت فيها فرحة الشبع بقلق المصير. أحضرت لهم الفتاة ذات العيون الزرقاء مائدة عامرة بما لذّ وطاب؛ أصناف نسيا مذاقها، وكأن الزمن سحبها من ذاكرتهما.

أكلا بنهمٍ طفولي، كأنهما ينتقمان من شهور الجوع والقسوة. امتلأت بطونهما حتى شعرا بثقلٍ يكاد يسحب أنفاسهما، لكنهما استمرّا يأكلان، فالفرصة قد لا تتكرر.

ثم جاء الشاي العراقي الثقيل، المخدّر بنكهته ورائحته، فكان كمسك الختام، يزيد الدفء في قلبيهما ويصب السكينة في روحيهما المتعبة.

ومع ذلك، كانت أعين الحراس تتحرك حولهما بلا قرار، مزيجٌ من التوتر والانتظار، وكأنهم يترقبون أمرًا لم يُعلن بعد. الجوّ مشحون، والقلق يقطر من السكون نفسه.

وقعت عينُ حمد على أحد الحراس اللطفاء الذين لم يتحدثوا معهم قط، سوى بلغة النظرات. رفع الحارس يده خلسة، مشيرًا بوداعٍ سريع، فضمّ حمد يده إلى صدره

ردًا على تحيته، في لحظة إنسانية صغيرة وسط عالم قاسٍ بلا رحمة.

غابت شمس ذلك اليوم الأخير... لم يكن يومًا كسائر الأيام. كان ثقيلًا، مليئًا بالمشاعر المتضاربة. جلس سعد مغمض العينين، يغرق في دوامة من التفكير: فرحٌ بقرب الخلاص، وخوفٌ من فقدان ذلك الهدوء الغريب الذي اعتاد عليه في الكهف.

فالأماكن، مهما كانت قاسية، تؤنس بمن يسكنها، وتترك في القلب أثرًا يصعب مسحه.

حضرت الفتاة ذات العيون الزرقاء، فوقف الزمن عند تلك اللحظة. تأملها حمد كأنه يراها لأول مرة، كأن شيئًا انكشف فجأة خلف غبار الأيام. لم تعد مجرّد مقاتلة قاسية، بل امرأة تحمل ازدواجيتها: قسوة الجبال، ورقّةٍ تخفيها تحت البدلة العسكرية. رأى في عينيها ضوءًا غريبًا... جمالًا لم يلتفت إليه من قبل، وربما لم يرغب أن يراه.

وعندما حلّ الظلام، اقتربت منهم وقالت بنبرة أكثر لينًا هذه المرة، تستأذن قبل أن تضع الغطاء الأسود على رؤوسهم، بحجة " الأمور الأمنية."

ابتسم لها حمد وهو يشعر بيدها تلامس رأسه قبل وضع الغطاء.

قال في نفسه:

- ليت هذا الوجه يكون آخر ما أراه من أسر أيامي... لعلها تكون بشارة خير.

واختفت الرؤية، لكن أثر ابتسامتها بقي عالقًا في قلبه.

بدأت رحلة مغادرة الكهف. كان حمد يمشي بتعثر متعمد، يدّعي الحاجة لمن يسنده، ظنًّا منه أن الفتاة قد تستجيب... لكن اليد التي ساندته كانت يد رجلٍ ضخم، فابتلع خيبته وواصل المسير.

مشوا لأكثر من ساعة فوق طرق جبلية وعرة، تتناثر فيها الصخور وتضيق فيها الممرات، حتى وصلوا أخيرًا إلى سيارة دفع رباعي.

ركبا في الخلف بينما تمايلت السيارة كقاربٍ وسط موجٍ هائج، تصعد صخورًا وتغوص حفرًا، كل شيء فيها يهدد بالقلب في أي لحظة.

وفجأة توقفت وهي في سرعة عالية، حتى كادت رئتا حمد وسعد تقفزان من القفص الصدري. سُمعت أصوات الحراس تتجادل بنبرة حادة... لغة كردية لا يفهمان منها شيئًا، لكنها تحمل انفعالًا واضحًا.

عاد الطريق يستقيم، وشعرا أخيرًا بوصولهما إلى طريقٍ معبّد. ساد صمتٌ ثقيل، لم تُصدر القيادة أي تعليمات، فانتظرا بصبرٍ أثقل من الساعات نفسها.

تسرّيت الرغبة في قضاء الحاجة، ولم يعترض الحراس، لكنهم رفضوا إزالة الغطاء الأسود.

ضحك حمد وهو يجرّ سعد نحو اتجاهٍ واحد، وقال ممازحًا تحت وطأة الموقف الغريب:

- نقضي الحاجة متلاصقين، ولا ندري حتى أين نقف !
- فرد سعد ساخرًا من وضعهما السريالي:
- نحن على الهواء مباشرة... الحراس يتابعون كل حركة، دعنا لا نختبر صبرهم!

ورغم الظلام، ورغم الغطاء الأسود، ورغم الخوف... كانت تلك الدقائق أخفّ وطأة من شهور الظلام التي سبقت، وكأنهما يلتقطان أنفاسهما قبل لحظة الحقيقة القادمة.

32- قرية العاشق

كانت تلك الليلة في قرية العاشق أشبه بحدّ السكين؛ تفصل بين العتمة والضوء، بين الخوف والنجاة، بين حياةٍ أرهقتها الأيام وأخرى تنتظر من يعيد لنبضها الحياة. توقّفت السيارات في المكان المتفق عليه، فهبطت إلى الأرض سكينة غريبة لم يعتدها الليل، كأن كل شيء كان يستعد للحظة مفصلية ستغيّر مجرى الحكاية كلها.

أُنزِلا من السيارة الأولى، وبدت خطواتهما متثاقلة، تحمل آثار الأسابيع الثقيلة التي قضياها تحت قبضة الخوف. دفعهم أحد الخاطفين بحركة قاسية إلى شنطة سيارة ثانية، وأشار إليهما بعيونه الحادة أن يلتزما صمتًا مطبقًا، صمتًا ينتمي لما قبل العاصفة. اغلق الباب فوقهما بإحكام، ورائحة الحديد والزيت تخنق أنفاسهما.

وبينما كانا يتنفسان بصعوبة، أُزيل الغطاء عن رأسيهما، فتبيّن لسعد أنه داخل سيارته التي خرج بها ذات صباح ولم يَعُد. شعر في تلك اللحظة أن السيارة نفسها تبكي عليه، وأن المقاعد التي كانت تشعره بالأمان أصبحت شاهدة على انكسار عمرٍ كامل.

لم تمرّ دقائق حتى انشق صمت القرية على صوت سيارة أخرى، محركها يعلو كغضب، وفي داخلها ثلاثة رجال يحملون كل وجوه الوطن:

أبو حمد بلهفته، الشيخ جاسم مطر بشهامته، وأبو كاظم برجولته النادرة.

وقف الثلاثة في مواجهة المسافة التي تفصل الرجال عن أبنائهم. وضعوا كيس الفدية على الأرض، ثم تراجعوا خطوة... خطوة كانت أثقل من حمل جبل. لم يثق الخاطفون بأي وعد أو كلمة، بل انحنت أيديهم تتحسس المال ورائحته وعدد أوراقه، كأن حياة الإنسان أصبحت تُقاس بالأرقام.

لم تمضِ سوى لحظات حتى اختفى الخاطفون داخل العتمة كما ظهروا، تاركين خلفهم صمتًا أثقل من كل صمت سابق.

ركض أبو حمد نحو السيارة يبحث عن ابنه، لكن المقعد الأمامي كان خاليًا، والباب الخلفي خالٍ، والقلق بدأ يصعد إلى صدره كدخان خانق. أحس بالقيامة تعود ثانية. خشي أن يكون الخاطفون أخذوا المال وتركوا الموت خلفهم.

وفي تلك اللحظة التي تُكتب في لوح العمر مرة واحدة، سمع طرقًا خفيفًا على باب شنطة السيارة... طرقًا يشبه بكاء طفل محبوس في الظلام.

لم يعرف كيف يفتحها، كانت يداه ترتجفان، عقله لا يعمل، وروحه تسبق خطواته. اقترب أبو كاظم، وفتح الباب بحركة سريعة...

وهناك... ظهر وجهان شاحبان، يتنفسان كأن الهواء عائد من منفى طويل.

صرخة أبو حمد مزّقت الليل كله. صرخة ليست مجرد صوت، كانت صرخة أبٍ رأى روحه تُعاد إليه. احتضن ابنه بقوة، قوة رجل عاش تحت شمس الانتظار حتى كاد يحترق. امتزجت دموعهما على ملابس مغبرة، وارتجفت أكتافهما من فرط الفرح والخوف. ثم التفت نحو سعد، وضمه ضمة الأبوة التي لا تسأل عن الدم ولا القرابة.

ثم خرّ ساجدًا...

ساجدًا بكل ثقله وبكل ضعفه وبكل الامتنان الذي حمله بين ضلوعه.

كان حمد وسعد كطائرين خرجا لتوّهما من قفص، هزيلين، وجهيهما غطّتهما الشحوب، وشعرهما طال حتى فاض عن أعمارهم الصغيرة. اقترب الشيخ جاسم، فاحتضنه حمد وهو يقول بصوت متهدّم:

- يا يبه... هذا الرجل أنقذنا بعد الله... يوم وصلت المنشورات اللي وزّعها، عرفنا إن فيه أحد يدور علينا... إنّا ما نسانا.

تقدّم أبو كاظم بابتسامة متعبة، فشكره الشابان بحرارة، وكان الليل يشهد على تلك المعانقة التي لا تُنسى.

قضوا ليلتهم في بيت الشيخ جاسم، في ضيافة تنتمي إلى زمن آخر، زمن الرجال الذين لا يغيّرهم الخوف ولا تهزمهم العتمة. ظلوا يسهرون حتى الفجر، يتحدثون، يحمدون الله، ويستعيدون أنفاسهم التي فقدوها طوال الأسابيع السابقة.

وفي الصباح، انطلق أبو حمد مع أبو كاظم إلى دهوك لاستعادة جوازات السفر والحقائب. كانت الخشية كبيرة من أن تكون السلطات قد صادرتها، لكن موظفي الفندق، بدافع الخوف من المسؤولية، احتفظوا بها كما هي.

تمكّن الشيخ جاسم من الحصول على ورقة رسمية تمنحهم المرور دون مساءلة، وكأن القدر نفسه يهيّئ لهم طريق العودة.

وفي فجر اليوم التالي، غادروا قرية العاشق. جلس أبو حمد خلف المقود، يقود سيارة سعد بسرعة لا تشبه السرعة، بل تشبه الشوق. الطريق بدا طويلاً بلا نهاية، كأنه يختبر صدق قلوبهم.

وعند الحدود، وقف أبو حمد لإنهاء الإجراءات الروتينية التي بدت لا تنتهي. وعندما اكتملت، وعندما رأوا لافتة منفذ جديدة عرعر أمامهم... فتحا نوافذ السيارة في اللحظة نفسها.

دخل هواء الوطن إلى صدورهم كما يدخل الضوء إلى غرفة مغلقة منذ زمن طويل.

هواء يحمل رائحة الأمان... رائحة الأم التي تنتظر... رائحة ترابٍ يعرف خطواتهم ويحفظ أسماءهم.

كان ذلك الهواء هو أول عناق للوطن... بعد غياب طويل.

المؤلف/صالح محمد الهلابي

كاتب سعودي روائي وناشط اجتماعي في مجال حماية الطيور.

صدرت له العديد من الأعمال الروائية منها:

1-جاري البحث -دار الفجر القاهرة 2024م

2-فيسلوف الريل -دار الفجر القاهرة 2025م

3-الزلزال يضرب -دار بسمة للنشر الإلكتروني المغرب 2025م

4-الترس -مؤسسة الانتشار العربي بيروت 2025م

5-تم القبض -دار بسمة للنشر الإلكتروني المغرب 2026م

عنوان المؤلف

helabis@hotmail.com

+966555488890

انضم إلى مجموعة دار بسمة على واتساب، من هنا

اشترك في نشرتنا البريدية لتتوصل بآخر إصدارتنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاهم، وإيصال أصواهم وتغريداهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا -في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة-نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

الإهداء 6

1- الرياض-صيف 1983م 7

2- حفر الباطن 11

3- الكويت 17

4- حفر الباطن 23

5- الحدود السعودية العراقية........................ 29

6- كربلاء 35

7- النجف 40

8- النجف 45

9- بين النجف وبغداد 50

10- بغداد.. 55

11- بغداد.. 61

12- بغداد.. 65

13- بابل.. 69

14- بغداد.. 73

15- بغداد 78
16- دهوك 83
17- دهوك 88
18- جبل شاباني....................................... 92
19- زاخو.. 96
20- زاخو.. 100
21- زاخــو 104
22- عرعر -حفر الباطن............................... 109
23- زاخو.. 114
24- الموصل 119
25- قرية العاشق 124
26- زاخو.. 129
27- قريــة العاشق 133
28- عرعر 138
29- قرية العاشق 144
30- زاخو.. 149
31- زاخو.. 153
32- قرية العاشق 157

صالح محمد الهلابي

كاتب روائي سعودي صدرت له رواية (جاري البحث) عن دار الفجر بالقاهرة ولديه العديد من الأعمال الروائية تحت الطبع سوف تصدر قريباً.

صدر له عن دار بسمة للنشر الالكتروني كتاب: الزلزال يضرب

Bassmabook
0021277181493
darbassma1@gmail.com